

# الزَّخَر

مَجَلَّةٌ فَضْلِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ

تُعْنَى بِالْأَثَارِ وَالْثَرَاثِ وَالْمَخْطُوطَاتِ وَالْوَنَائِقِ

عدد خاص عن الغرب الإسلامي . الإصدار الأول

## في هذا العدد:

- جوانب من تاريخ الأشراف بالمغرب وتحقيق أنسابهم ..... د. خالد بن أحمد الصقلي
- مسائل التأليف في فقه النوازل بالمغرب الإسلامي ..... د. مصطفى الصمدي
- دراسة تحليلية في رسائل فضائل أهل الأندلس ..... د. هدى شوكت بهنام
- ابن ملكون النحوي، من خلال مخطوط (إيضاح المنهج) ..... أ. محمد الجبيري
- من شعراء الغزل في الأندلس ..... د. قدام سعيدة
- فضائل أهل الأندلس - نصّان جديّدان ..... د. محمود خيارى
- شعر أبي علي بن كسي المالقي (ت ٦٠٣ أو ٦٠٤) ..... د. سليمان القرشي
- المقرئ التلمساني والتواصل بين المغرب والمشرق ..... أ. د. ابتسام مرهون الصفار
- مالك بن المرحل - حياته وشعره ..... أ. نجيب الجباري
- المؤلفات الأندلسية والمغربية في الرد على ابن حزم الظاهري ..... د. سمير القدوري
- تفسير مكّي بن أبي طالب القيسي ..... أ. عبد اللطيف دهاج
- ورقات عن حضارة المرينيين ..... أ. د. بدري محمد فهد
- ملاحظات وتعقيبات على تحقيق كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء
- ..... د. محمد الحافظ الروسي
- إصدارات ..... أ. حسن عريبي الخالدي

## جوانب من تاريخ الأشراف بالمغرب

### وتحقيق أنسابهم

الدكتور خالد بن أحمد الصقلي (\*)

#### القسم الثاني<sup>(١)</sup>

لقد كانت فترة ثلاثين سنة من الاضطرابات قناة للعبور، وفرصة نادراً ما تعوض، استغلها أدياء النسب الشريف. ولكن إذا كانت هناك منفعة أخروية ومزايا خص بها الشرفاء، وخاصة منهم من يتحلون بأنبيل الخصال، بدليل النصين القرآني والنبوي، فلماذا ادعى الكثير الانتساب إلى البيت النبوي في هذه الدار الدنيوية؟

مما لا شك فيه أن وجود أفراد من هذه الفئة الاجتماعية منذ عهد خير البشرية صلى الله عليه وسلم في أي بلد إسلامي جعلهم يحظون بالتعظيم والتبجيل من قبل كل الفئات الاجتماعية حكاماً ومحكومين، أغنياء وفقراء.

١- نظرة موجزة عن مكانة الشرفاء بالمجتمع المغربي منذ قيام الدولة العلوية إلى سنة

١٧٥٩/١١٧١

منذ تقلد زمام الحكم شرفاء سجلماسة تبلورت معالم تعظيم الشرفاء في عدة جوانب، ذلك أننا نجد أن هؤلاء استمروا - كما كانوا خلال عهد السعديين - معفيين من أداء الضرائب ومن دفع الزكاة<sup>(٢)</sup>، وأحياناً من التجنيد العسكري<sup>(٣)</sup>. غير أن حضورهم الرمزي بجانب المجاهدين أثناء حدوث مواجهة عسكرية ضد من تسول له نفسه للنيل من كرامة هذا الوطن يعد زائداً معنوياً، كما هو الشأن بالنسبة لحضورهم بجانب المجاهدين بطنجة سنة

\* أستاذ في كلية الآداب - فاس - المغرب.

(١) نشر القسم الأول من هذه الدراسة في مجلة الدوحة المغربية، ٤٤، الرباط، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. ص ٢٥ - ٥١.

(٢) Norman Cigar, Societe ri vie politique a Fes: (0661/0381)- Hesperis Tamuda. Volume 18/P:102

(٣) أبو القاسم الزباني. (تحفة الأعلام) ص: ١٢ مخطوط بالخزانة العامة رقم: ك ٢٢٤.

١٠٩٥ / ١٦٨٣ لمحاربة الإنكليز<sup>(١)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن أصحاب هذه الفئة الاجتماعية كانوا من أهل الحل والعقد بجانب العلماء والأعيان، حيث بدونهم لا تتم مراسيم البيعة التي تخول لكل سلطان تبوء كرسي الحكم. ولقد قام هؤلاء بتأدية البيعة للسلطان المولى الرشيد سنة ١٠٧٧ / ١٦٦٦<sup>(٢)</sup>، والمولى إسماعيل سنة ١٠٨٢ / ١٦٧١<sup>(٣)</sup>، والمولى أحمد بن إسماعيل سنة ١١٣٩ / ١٧٢٦<sup>(٤)</sup>، والمولى عبد الملك بن إسماعيل سنة ١١٤٠ / ١٧٢٧<sup>(٥)</sup>، والمولى علي بن إسماعيل سنة ١١٤٧ / ١٧٣٤<sup>(٦)</sup>، والمولى محمد بن إسماعيل سنة ١١٤٩ / ١٧٣٦. بعد عزل المولى عبد الله<sup>(٧)</sup>، والمولى المستضيء بن إسماعيل سنة ١١٥١ / ١٧٣٨<sup>(٨)</sup>. كما أنهم مقابل هذه الحظوة المعنوية التي ينالونها بتأديتهم هذه البيعة التي تعبر عن وزنهم بالمجتمع المغربي، يحصلون على مقابل مادي<sup>(٩)</sup>.

وبين الفينة والأخرى من فترة حكم أي سلطان كان الشرفاء يتوافدون على حضرته لتجديد الولاء والطاعة، كما حدث مع المولى عبد الله سنة ١١٥٣ / ١٧٤٠<sup>(١٠)</sup>.

ويتجلى لنا سمو مكانة الشرفاء بالمجتمع المغربي على الصعيدين الرسمي والشعبي عندما تحل أزمات اقتصادية وسياسية، فعلى الصعيد الاقتصادي نجد أنه حدث بمدينة فاس جفاف كبير سنة ١٠٩١ / ١٦٨٠. وأثناء إقامة صلاة الاستسقاء بالباب الحمراء داخل باب الفتوح، كانت نعال المصطفى صلى الله عليه وسلم - التي توجد إلى اليوم في ملك الصقليين الطاهريين الحسينيين<sup>(١١)</sup> - بجانب الخطيب محمد العربي بردلة. وكان من بين المصلين شرفاء فاس تبعاً لنصيحة شيخ الإسلام عبد القادر بن علي الفاسي الفهري. ولقد استشفع الخطيب في خطبته بآل البيت، وأدى ذلك إلى نزول المطر بغزارة<sup>(١٢)</sup>.

(١) محمد بن الطيب القادري (نشر المثنائي). ٢ / (٣٢٤-٣٢٣).

(٢) المرجع نفسه، ١٦٨ / ٢.

(٣) أحمد الناصري (الاستقصا). ٤٥ / ٧.

(٤) المرجع نفسه، ١١٤ / ٧.

(٥) المرجع نفسه، ١١٩ / ٧ - محمد بن الطيب القادري م. س. ٣ / (٣٠٠-٢٩٩).

(٦) المرجع نفسه، ١٣٧ / ٧.

(٧) محمد بن الطيب القادري م. س. ٣ / ٣٩٣.

(٨) أحمد الناصري م. س. ١٤٧ / ٧.

(٩) المرجع نفسه، ١٤٧ / ٧.

(١٠) محمد بن الطيب القادري م. س. ١١٤ / ٧.

(١١) بخصوص هاته النعال انظر: لتحقيقي لكتاب (غاية الأمانة) لعبد الواحد الفاسي. ج ١ / ص (٤٦٦-٤٧١).

(١٢) محمد بن المدني كنون (الدرة المكتونة). ص: ١٤٨.

وعلى الصعيد السياسي، فلقد قامت فئة الأشراف بالاستشفاع لدى المولى إسماعيل لكي يبقى المولى محرز والياً بفاس الجديد سنة ١٠٩١/١٦٨٠<sup>(١)</sup>.

وأثناء سنة ١١١٤/١٧٢٠ قام أعيان فاس وتوافدوا على حضرة المولى إسماعيل ببلاطه بمكناسة الزيتون. وكان في مقدمتهم الشرفاء الطاهريون الصقليون الحسينيون، الذين حملوا معهم النعال النبوية الشريفة. وقاموا بالاستشفاع بها لدى الجنب الشريف، لكي يقوم بالتخفيف من شدة الضرائب، فقبل شفاعتهم<sup>(٢)</sup>.

ويرجع الفضل إلى نفس الفئة في إصلاح ذات البين بين سكان فاس والمولى عبد الله سنة ١١٤٢/١٧٢٩ لما رفض هؤلاء السكان تسليم البساتين والقصبات الموجودة بهذه المدينة لنفس السلطان. وهذا الموقف جعل السلطان يصل هؤلاء الوسطاء بألف دينار، علاوة على منحهم أرفع اللباس<sup>(٣)</sup>.

كما أصدر السلاطين ظهائر شريفة، منها ما تحت على تعظيم آل البيت فقط، ومنها ما تحت على تعظيمهم ومنحهم امتيازات<sup>(٤)</sup>.

والسلطة المركزية لم تأخذها هواده في الضرب بقوة على كل من يؤذي الأشراف، ولعل أبرز مثال لذلك هو ابن زيان الذي قام بالتنكيل بأشراف فاس، وبمصادرة أموالهم سنة ١١٥١/١٧٣٨. وهذا العمل جعل السلطان المولى المستضيء يأمر أن يطاف هذا الشخص على دابة وهو يردد عبارة: (هذا جزء من يؤذي الأشراف). فطيف به. ثم قطع رأسه وعلق على باب المحروق قرب باب أبي الجنود بفاس<sup>(٥)</sup>.

وعند حلول السلطان بإحدى المدن، كان من الطبيعي أن يجد الشرفاء في مقدمة المستقبلين له<sup>(٦)</sup>.

إذن كانت هذه الامتيازات المعنوية علاوة على الامتيازات المادية حافزاً على بروز كثرة المتشرفة عبر قناة اضطرابات ثلاثين سنة. فكيف أصبح حال النسب الشريف؟ وما هو موقف السلطة المركزية من ذلك؟

(١) محمد بن الطب القادري م.س. ٢/ (٢٩٥-٢٩٦).

(٢) المرجع نفسه ٣/ ١٤٤.

(٣) المرجع نفسه ٤/ (٣٢٢-٣٢٤).

(٤) هناك ظهير إسماعيلي بتاريخ ١٠٨٥/١٦٧٤. وهو صادر لصالح أولاد شماس أهل فجيج. ومما ورد به ما نصه: "... واحترمتهم وعظمتهم تعظيماً للنسب الطاهر..." ونص هذا الظهير يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة رقم: ك ١٥٧٤ ضمن مجموع ص: ٦٤.

(٥) أحمد الناصري م.س. ٧/ ١٤٩.

(٦) المرجع نفسه، ٧/ ١٢٥.

## ٢- مجهودات السلطة المركزية في تحقيق النسب الشريف بالمغرب خلال عصر السلاطين: المولى محمد الثالث والمولى اليزيد والمولى سليمان:

أ- الحالة التي أصبح عليها النسب الشريف بالمغرب من جراء أزمة ثلاثين سنة:

مما لا شك فيه أن خير من يصف لنا هذه الظاهرة هم المعاصرون لها، وكذلك بالنسبة للحلول التي أعطيت لها. وهكذا نجد محمد بن عبد الصادق بن الريسون العلمي الحسيني<sup>(١)</sup> يذكر: «وقد كثر المدعون في زماننا لهذا النسب الكريم، جرأة على سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، وجهلاً بالوعيد الوارد... وانضم إلى ذلك تساهل العوام في شهادتها، ومسامحة الخاصة في الإنكار على من انتسب لهذا النسب الشريف، ظناً منهم أن ذلك أسلم لهم وهيئات! فأين السلامة وقد أسلموا الذخيرة الحسنى الذي هو النسب النبوي، الذي إليه المفزع معاشاً وملاذاً، ومنه استمد العالم ظاهراً وباطناً؟ وتركوا في أيدي العوام بيعونه بثمان بخس...»<sup>(٢)</sup> وعلى منواله يجسد هذه الظاهرة أبو القاسم الزياني فيذكر أنه: «لما مات المولى إسماعيل تبدل أهل المناصب الذين كانوا في دولته ممن لا خبرة لهم، وقام المتشرفة وأهل الدعاوي، وكتبوا الرسوم وزوروا الشهادات، وقصدوا الملوك في تجديد ما كان بيدهم، ولم يجدوا من ينه عليهم ولا يلتفت لتلييسهم...»<sup>(٣)</sup>.

وقد أصبحت الخزينة تعاني من العجز المالي من جراء الامتيازات المالية كالإعفاء من الضرائب<sup>(٤)</sup>، التي أصبحت تمنح للشرفاء والمتشرفة على حد سواء. ولما تقلد زمام السلطة المولى محمد الثالث قام بفرض الزكاة والأعشار على القبائل، لكن عماله الذين أنيطت لهم مهمة استخلاصها: (لم يجدوا من يعطيها لكثرة ادعاء الشرف)<sup>(٥)</sup>، إذن كيف واجهت السلطة المركزية هذه الظاهرة؟

ب- مجهودات السلاطين الثلاثة في تحقيق النسب الشريف:

من جراء الحالة التي أصبح عليها النسب الشريف في المغرب، والتي لا تخالف الشرع فحسب، بل تهدد اقتصاد الدولة من جراء قلة المداخيل، تجندت السلطة المركزية لمقاومتها. وكان يؤازرها ويشد عضدها العلماء.

(١) وقفنا له على كتاب: (فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير) مخطوطاً بالخزانة الحسينية رقم ٥٢٩١. وذكر به أن مؤلفه هو محمد بن إدريس العلمي العلالي وهو خطأ وانظر إلى: عبد السلام بن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى. ٦١/١ رقم ٤٠٥ - محمد عبد الله عنان: فهرس الخزائن الملكية. ٣٧٠-٢٤٨/١.

(٢) محمد العلمي م.س. ص: ١٩.

(٣) أبو القاسم الزياني (التحفة) ص: ١١.

(٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ. ٥٤٤/٣.

(٥) أبو القاسم الزياني (التحفة) ص: ١١.

في خضم ذلك تقلد الحكم السلطان المولى محمد بن عبد الله: (١١٧١ - ١٢٠٤/١٧٥٧ - ١٧٨٩)، وكان عالماً بعدة علوم، ونجد من بينها علم الأنساب<sup>(١)</sup>. ويعتبر ذلك مؤشراً يبشر بأن تحقيق النسب الشريف سيصبح على يديه قائماً. وعلاوة على ذلك فهو من أهل البيت، الذين عرفوا بغيرتهم على نسبهم الشريف<sup>(٢)</sup>. وهكذا لما تقلد زمام السلطة قام بتكليف العلماء والقضاة وأعيان القبائل بالبحث في المجتمع البدوي للتمييز بين الشرفاء والمتشرفة، بالاعتماد على الكناش الإسماعيلي الذي سجل فيه الشرفاء الشرعيين. ولقد قامت النخبة المذكورة بتنفيذ المهام التي أسندت إليها. وأصبح الشرفاء بالبداية أشياخهم الذين كلفوا بدفع زكاتهم وأعشارهم<sup>(٣)</sup>.

أما بخصوص المجتمع الحضري فإن السلطان سيدي محمد بن عبد الله لما تقلد زمام السلطة قام بإصدار ظهير شريف، ومضمونه هو إسناد خطة النقابة لاثني عشر شريفاً بمدينة فاس لتمييز الشرفاء من المتشرفة. ونجد من بين هؤلاء النقباء عبد الملك بن أحمد العمراني الجوطي، وحفيد بن محمد فتحا الصقلي الحسيني، ومما يقوله السلطان في هذا الظهير بالنسبة للمهام المنوطة بهؤلاء ما نصه: (...). وأذنّا لهم في تفحص الرسوم الحادثة والقديمة، والبحث عن أصول المنتسبين للنسبة الطاهرة الكريمة، والاطلاع على ما في أيديهم من البنات والعقود، والنظر في الموجبات والشهود، وتصحيح النسبة وإبطالها بالموجب الشرعي، والوجه الواضح المرسي على السنن المعروفة والنهج المعهود...<sup>(٤)</sup>.

وعلى أثر حدوث الجفاف سنة ١٢٠١/١٧٨٧ أمر السلطان المولى محمد بن عبد الله بترتيب الدقيق في المدن وتفريقه في كل حي على الضعفاء. وهذا الأمر جعل أشراف فاس يطلبون من السلطان أن يخصصهم بنصيبهم ولا يدخلون مع عامة الناس. فأجابهم السلطان بالقبول. ثم أعطى تعليماته بأن يقسم مال إراثه المنقطعين بفاس على هؤلاء في كل شهر. وهذه الامتيازات فتحت الباب من جديد على مصراعيه، حيث برز من جديد كثرة أذعيا النسب الشريف من أجل الاستفادة من نفس الامتيازات. وأمام هذه الوضعية اشتكى عامة

(١) أبو القاسم الزياتي (الترجمة الكبرى) ص: ١٨ من تقديم المحقق: عبد الكريم الفيلاي.

(٢) انظر محمد بن السكاك المكناسي (نصح ملوك الإسلام) ص: (٢٢-٢٣).

(٣) أبو القاسم الزياتي (التحفة) ص (١٢-١٣).

(٤) السطور: (٩٦) من الظهير الشريف المؤرخ بتاريخ أواخر جمادى الأولى عام ١١٧١ الموافق لأوائل يراير ١٧٨٨ أي بعد تقلد صاحبه زمام السلطة بحوالي ثلاثة أشهر. وهذا الظهير ورد عند عبد الرحمن بن زيدان في: (إتحاف أعلام الناس) ٣/٣٤٩. والنسخة التي اعتمدها من نفس الظهير تميز على نسخة ابن زيدان بكونها مرافقة بشهادة قاضي فاس وعدلين منهما بتاريخ يوم الجمعة ١٧ شعبان سنة ١٣٦٠/ الموافق ٢٠ شتنبر ١٩٤٠. ويؤكد هؤلاء على مصداقية هذا الظهير. وللمهتم بمهام خطة النقابة خلال عهد السلطان المولى محمد الثالث، فعلاوة على هذا الظهير انظر إلى محمد العلمي (فتح العليم الخبير) ص: ٢٠.

الأشراف للسلطان المذكور من أجل العمل على وضع حد لهذه الظاهرة<sup>(١)</sup>.  
وكعادته استجاب السلطان بالقبول لهذا الطلب، فأصدر يوم الأحد ١٧ جمادى الثانية ١٢٠١ الموافق ٢٥ يراير ١٧٨٧ ظهيراً شريعياً، حدد فيه الشرفاء الشرعيين الذين يمكنهم الاستفادة من مال إراثة المنقطعين بفاس، وهذا الظهير الشريف إن كان قد وضع حداً من جديد للمتشرفة، فهو يؤكد على كون هذا السلطان كان له إمام بالأنساب عامة، وأنساب الأشراف على الخصوص. ومما يذكره السلطان في هذا الظهير ما نصه: (. . . وقد أحاطت الناس بما لم يحيطوا به علماً، ويعلم ويتحقق أن العلماء العاملين أجمعوا أن النسب المقطوع به في غربنا من غير شك ولا ريب، هو ما أدخل في دفتر مولانا الجد<sup>(٢)</sup> . . . وشهدت لهم به الكافة والجمهور، وحقق من دفتر لأبي العباس أحمد المنصور<sup>(٣)</sup> . . . وبمقتضى هذا الظهير منحت خطة النقابة للبحث في النسب الشريف لمولاي رشيد بن عبد الهادي بن عبد النبي الدرقاوي الحسن<sup>(٤)</sup>.

وهكذا خلال عهد هذا السلطان أصبح النسب الشريف محققاً بالمغرب و (أعطى الحق لأهله)، و(رد كل فرع لأصله)<sup>(٥)</sup> وأحمد أهل الدعاوي ولم يبق لهم ذكر<sup>(٦)</sup>.

ولما تقلد زمام السلطة المولى اليزيد بن محمد الثالث: (١٢٠٤ - ١٢٠٦) / (١٧٨٩ - ١٧٩٢) أثبت (شرف أهل الدعاوي، الذين ذكروا له أن والده حرمهم من شرفهم. وتم ذلك على يد الحاجب ابن الزنكي، وكاتبه بلعباس)<sup>(٧)</sup>.

أما المولى سليمان بن محمد الثالث: (١٢٠٦ - ١٢٣٨ / ١٧٩٢ - ١٨٢٢) فقد شهر بعمله وفضله، وقام بتجديد الظواهر التي منحها سلفه المولى اليزيد للأشراف والمتشرفة، غير أنه لما قامت الرعية بتقديم شكوى له، أصدر تعليماته لعماله بعدم منح صلاحية للظواهر التي قام

- 
- (١) أبو القاسم الزباني (التحفة) ص: ١٣.
  - (٢) يقصد به الديوان الإسماعيلي الذي يميز الأشراف عن المتشرفة بالمغرب. وتوجد منه سبع صفحات بخط أبي القاسم الزباني في الخزنة العامة تحت رقم: د ٣٤٠٢.
  - (٣) يعتبر أحمد المنصور السعدي أول سلطان مغربي حقق نسب الأشراف بالمغرب بكيفية شمولية. غير أن الديوان الذي وضعه في هذا الإطار، والذي اعتمد عليه المولى إسماعيل أثناء قيامه بنفس العمل يعتبر إلى الآن ضائعاً.
  - (٤) السطور: (١٩/١٦) ص: ٢ من الظهير الشريف. ولقد رد نص هذا الظهير عند عبد الرحمن بن زيدان: (الإتحاف) ٣/ (٢٤١-٢٣٦) (العز والصولة) ٢/ (١٠٧-١٠٩). غير أن الظهير الذي اعتمدناه والموقوف عليه بخزانة خاصة هو عبارة عن نسخة تتميز بأنها تمت مقابلتها ومماثلتها مع الأصل من قبل قاضي فاس وعدلين منها بتاريخ يوم الجمعة ١٥ ربيع الثاني عام ١٣٠٠ الموافق ٢٣ يراير ١٨٨٣. ومن بين أهم الجوانب التي توضح لنا أهمية هذا الظهير كونه يوجد مكتوباً به أسماء أغلبية البيوتات الحسنية بالمغرب.
  - (٥) إدريس العلوي (الدرر البهية). ١١/١ - محمد سكيرج (الدرر اللآلي) ص: ٥٧.
  - (٦) أبو القاسم الزباني (التحفة) ص: ١٣.
  - (٧) المرجع نفسه، ص: ١٣.

بتجديدها. ثم أمرهم بتحصيل الزكاة والعشر، ولا يتركوهما لشريف أو متشرف<sup>(١)</sup>.

ومن أجل نفس الغاية قام نفس السلطان فأصدر ظهيرين شريفيين خلال سنة واحدة. ولعل القيام بهذا العمل يعبر عن وزن هذه الظاهرة بالمجتمع المغربي خلال هذه الفترة الزمنية. وقد حدث إصدار الظهير الأول خلال يوم الاثنين ٧ ربيع النبوي عام ١٢١٠ الموافق ٢١ شتنبر ١٧٩٥ وهو موجه إلى التقيين الشريفين العالمين السيد عبد الكبير بن عبد الهادي بن عبد النبي الدرقاوي الحسني، والسيد سليمان الحوات بن محمد العلمي الحسني. وهذا الظهير يؤكد على ثلاثة أفكار أساسية:

بالنسبة للفكرة الأولى: فهو يذكر أنه بالاستناد إلى ديواني السلطانين: المولى أحمد المنصور السعدي، والمولى إسماعيل العلوي، اللذين يشتملان على أسماء الأسر الشريفة النسب بالمغرب، فإن نقباء الأشراف خلال عهد المولى محمد بن عبد الله قد أغفلوا إضافة بعض الأشراف الشرعيين. وهو الأمر الذي يحتم تدارك هذا الإغفال<sup>(٢)</sup>. ثم يشير نفس السلطان إلى أن الأشراف بالمغرب يتميز نسبهم بكونه عبارة عن طبقات وفق مقاييس، ومما يقوله نفس الظهير في هذا المضمار ما نصه: (...) وأهل النسبة فيه طبقات بعضها فوق بعض درجات، فأولهم المشاهير الذين عد شرفهم المتواتر، ثم أهل الرسوم والظواهر التي لا يتوجه إلى أهلها طعن، ولا يتطرق بها للمتمسك احتمال. ثم أهل الرسوم التي توجه الطعن إليها. وقد ضرب لهم الآجال عليها. ثم أهل الظواهر والتحلية التي ربما يكون بها عبرة في الظاهر، ثم أهل الدعاوي المجردة مع أهل الدعاوي الكاذبة، وهم الكثرة أجناد مجندة...<sup>(٣)</sup>.

وأما بخصوص الفكرة الأساسية الأخيرة التي يتضمنها نفس الظهير فتتجلى في: الدعوة إلى ضرورة تمييز الشرفاء من المتشرف، كأهل فجيج الذين صاروا يعدون أنفسهم شرفاء. وفيما يتعلق بالثلاثين فرقة التي تدعي النسب الشريف، وكان قد أعطى لها أجلاً لكي تبرر مصداقية ادعائها، فمن الأفضل إثبات شرف نسبها لعدم وجود دليل ينفي ادعائها خصوصاً مع قرب الاحتفال آنذاك بذكرى مولد جد الأشراف صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup>.

(١) أبو القاسم الزياني (التحفة)، ص: ١٣.

(٢) السطور: (١٣ - ١٩) من الظهير الشريف.

(٣) السطور: (٩ - ١٢) من الظهير الشريف.

(٤) السطور: (٢١ - ٢٥) من الظهير الشريف. وبخصوص هذا الظهير فنصه يوجد عند العباس بن إبراهيم المراكشي (الأعلام) ١٠/ (١٢ - ١٢٩) - عبد الرحمن بن زيدان (العز والصولة) ٢/ (١١١ - ١١٣). غير أن النسخة التي اعتمدها وقفنا عليها بخزانة خاصة ومرافقة بشهادة المقابلة والمائلة من النسخة الأصلية من نفس الظهير من قبل قاضي فاس وعدلين منها بتاريخ يوم الاثنين ١٨ ربيع الثاني عام ١٣٦٠ الموافق ٢٦ يبراير ١٨٨٢.



أما بخصوص إصدار الظهير الثاني: فيرجع تاريخه إلى يوم الأربعاء متم شعبان عام ١٢١٠ الموافق ٩ مارس ١٧٩٦. وظروف إصداره هي أنه لما توصل السلطان المذكور بالرسالة من النقيب السالفي الذكر. ويتضمن ستة أفكار أساسية وهي:

١ - موافقة المولى سليمان لإضافة النقيين المذكورين للشرفاء العلميين والقادرين ضمن قائمة الشرفاء المنعم عليهم<sup>(١)</sup>.

٢ - مؤازرتهم لتمكينهما بفضل مساعدة العارف بالله العربي الدرقاوي من إبطال دعوة هاتين الطائفتين من الشرفاء، على كونهم أصحاب مال إراثة المنقطعين بفاس وحدهم دون غيرهم<sup>(٢)</sup>.

٣ - التأكيد على أن شرفاء النسب سواسية في الحقوق والواجبات<sup>(٣)</sup>.

٤ - التذكير على كون فاس تعتبر: (دار هجرة كل مؤمن، والأشراف فيها يتميزون بقبض الصلة من عطايا الملوك)<sup>(٤)</sup>.

٥ - التحذير من ادعاء النسب الشريف الذي من أجل المحافظة على حرمة، وضعت خطة النقابة<sup>(٥)</sup>.

٦ - النصح بلزوم التقوى في ممارسة هذه الخطة<sup>(٦)</sup>.

وإذا كان المولى سليمان قد بذل جهوداً جبارة في تحقيق النسب الشريف حتى أن المنشرفة: (انقطع كلامهم واستراحت الرعايا من ضررهم واستكانوا)<sup>(٧)</sup>.

وإذا كان قد اعتمد في ذلك على ديواني المنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي، فإن ما قام به ظل جاري العمل خلال عهد المولى الحسن الأول<sup>(٨)</sup>.

وهكذا إذا كان تحقيق نسب الأشراف قد صار واقعاً ملموساً خلال عصر السلاطين

(١) السطر ٦ من الظهير الشريف.

(٢) السطور (٦ - ١٠) من الظهير الشريف.

(٣) السطور (١٠ - ١٢) من الظهير الشريف.

(٤) السطران (١٣ - ١٤) من الظهير الشريف.

(٥) السطران (١٤ - ١٥) من الظهير الشريف.

(٦) السطران (١٥ - ١٦) من الظهير الشريف. وبخصوص نسخة هذا الظهير فهي توجد في ملكيتي، ووقفت عليها بخزانة خاصة، وتمت مقابلتها ومماثلتها بأصل من قبل قاضي فاس وعدلين منها بتاريخ يوم السبت ١٨ ربيع النبوي عام ١٣٠٠ الموافق ١٦ سبتمبر ١٨٨٤.

(٧) أبو القاسم الزباني (التحفة) ص ١٣.

(٨) هناك ظهير شريف للمولى الحسن بن محمد (١٢٩٠-١٣٢٥) / (١٨٧٣-١٩٠٧) بتاريخ ١٣٠٩ / ١٨٩١ قام خلاله بتجديد ظهير للمولى سليمان، ويحدد ضمنه فرق الشرفاء المستفيدين من مال إراثة المنقطعين بفاس. وهو ما يعني السير على نهج العمل الذي عمل بمقتضاه المولى سليمان في هذا الإطار. وقد ورد هذا الظهير عند العباس بن إبراهيم المراكشي م.س. ١٠ / (١٢٩-١٣٠).

الثلاثة بعد فوضى أزمة ثلاثين سنة، فإن نفس التحول حدث بخصوص موقف السلطة المركزية من المتممين الشرعيين لهذه الفئة.

وقبل أن نظهر نماذج هذا التحول الذي برز على الخصوص في إغداق العطايا لصالح المتممين لهذه الفئة الاجتماعية، فمن اللازم أن نسلط الضوء على نماذج لمكانتهم بالمجتمع المغربي

### ٣- مكانة آل البيت بالمجتمع المغربي خلال عصر السلاطين الثلاثة:

أ- نظرة عامة عن المكانة التي أصبح عليها آل البيت من جراء أزمة ثلاثين سنة:

بعد مرور ثلاثين سنة من الفوضى الشاملة، كان من الطبيعي أن يكون أصحاب هذه الفئة الاجتماعية قد أصبحوا يعانون الكثير من لعب أدوارهم على مسرح الأحداث بالمجتمع المغربي بكيفية طبيعية. إضافة إلى ذلك فوجود كثرة أديعاء النسب الشريف يعني حصول هؤلاء على عدة امتيازات، كالإعفاء من دفع الضرائب والحصول على عطايا، وهو الأمر الذي يعني ضعف بعض موارد الدولة، وضيق الكثير من العطايا لصالح آل البيت الشرعيين. وقد تبلورت خلال هذه الفترة من الأزمة مظاهر التنكيل بالشرفاء، كما هو الشأن بالنسبة لتنكيل جيش العبيد بشرفاء وزان سنة ١١٤١/١٧٢٨<sup>(١)</sup>، وكما هو الأمر بالنسبة للسلطان المولى محمد بن عربية، الذي قام سنة ١١٤٩/١٧٣٦ بالتنكيل بشرفاء سلجماسة وفاس لما تقلد زمام السلطة لرفضهم تأدية البيعة له<sup>(٢)</sup>، ولكن هل سيستمر الحال على نفس الشاكلة بعد أزمة ثلاثين سنة؟

ب- إبراز بعض النماذج للأدوار التي لعبها الشرفاء على الصعيد السياسي خلال عصر السلاطين الثلاثة:

نلاحظ أنه مع حلول فترة الاستقرار السياسي أخذ الشرفاء يقومون من جديد بلعب أدوارهم على الساحة السياسية.

وهكذا نجد أن حضورهم في حفل البيعة كان ضرورة لازمة، فالمولى محمد الثالث كان ممن بايعه بمراكش الحمراء فئة الشرفاء<sup>(٣)</sup>، وكذلك الشأن بالنسبة للمولى اليزيد بضريح المولى عبد السلام بن مشيش بجبل العلم<sup>(٤)</sup>، والمولى سليمان بضريح المولى إدريس الثاني

(١) محمد بن الطيب القادري م.س. ٣ / (٣١٩-٣١٨).

(٢) المرجع نفسه ٤ / (١٥-١٤).

(٣) تحدث عن ذلك كل من أحمد الناصري م.س. ٨ / ٤- محمد أكنسوس (الجيش العرمم). ١٣٤ / ١.

(٤) تحدث عن ذلك كل من أحمد الناصري م.س. ٨ / ٦- عبد الرحمن بن زيدان (الدرر الفاخرة) ص: ٦٥-

محمد أكنسوس م.س. ١٧ / ١- محمد فتحا البزوي (تاريخ دول الإسلام). ص: ١٤٩ مخطوط بالخزانة الحسينية، رقم: ٤١٣.

بفاس<sup>(١)</sup>، وإن مكاني بيعة المولى اليزيد والمولى سليمان يؤكدان على سمو مكانة صاحبي الضريحين اللذين ينتميان لآل البيت لدى عامة الناس وخاصتهم آنذاك، وهو الأمر الذي يساهم في زيادة كسب التأييد لكل من السلطانين.

وقد كان لجوء أحد الجناة إلى بعض الأضرحة الرئيسية بالبلاد كما هو الشأن بالنسبة لأضرحة المولى عبد السلام بن مشيش، والمولى إدريس الأول، والمولى إدريس الثاني بمثابة لجوء سياسي إلى تراب دولة أخرى في عصرنا<sup>(٢)</sup> ولعل أبرز مثال يعطى هو لجوء المولى اليزيد ثلاث مرات إلى ضريح المولى إدريس الأول، في خلال سنة ١١٨٢/١٧٦٨ مرتين، وخلال سنة ١١٨٩/١٧٧٥ مرة واحدة<sup>(٣)</sup> نظراً لكونه أعلن الثورة ضد والده، مما جعل عقابه أمراً منتظر الحدوث. غير أن احتفاء مرتين بضريح مؤسس أول دولة مغربية مستقلة وشريفة، واستشفاع فئة اجتماعية متميزة، وهم أشرف زرهون لدى السلطان المولى محمد الثالث جعل هذا الأخير يصدر عفوه بدون تراجع. ونظراً لنفس السببين فقد تم خلال المرة الثالثة العفو عن المولى اليزيد صحبة جيش العبيد الذين كانوا يساندونه في ثورته<sup>(٤)</sup>.

ولقد كان حضور الشرفاء خلال عهد المولى محمد الثالث لاستقبالهم له عند حلوله بمدينة فاس من المراسيم الجاري بها العمل<sup>(٥)</sup>، وكذا تأديتهم صلاة الجمعة بجانبه، وكذلك حضورهم حفلة زفاف أبنائه<sup>(٦)</sup>.

والسلطة المركزية لم تأخذها هوادة في التكنيل بمن يسيء إلى أصحاب هذه الفئة الاجتماعية، كما هو الأمر بالنسبة للمولى حسن بن إسماعيل الذي كان شرفاء سجلماسة يتضايقون من نفوذه، فوضع نفس السلطان حداً لهذا العمل رغم أن المولى الحسن يعتبر عمه، وذلك كاستجابة لطلب شرفاء سجلماسة، وحدث ذلك سنة ١١٩٨/١٧٨٣<sup>(٧)</sup>.

وكان من الطبيعي أن يحدث في كل علاقة ما هو إيجابي وسليبي. وفي هذا الصدد نجد السلطان المولى محمد الثالث قد راسل بعض فئات الأشراف بفاس، وهم الأدارسة والطالبون والغالبون والعلويون من السبط الحسني، ثم الصقليون والعراقيون والمصريون من السبط الحسيني. وعاتبهم لكونهم لم يقدموا يد المساعدة لابنه المولى إبراهيم لما نهبت داره<sup>(٨)</sup>.

(١) تحدث عن ذلك كل من: أحمد الناصري م.س. ٨/ ٨٧ - ٩٠ - عبد الرحمن بن زيدان (الدرر) ص: ٦٧ -

محمد أكنسوس م.س. ١/ ١٨١.

(٢) إبراهيم حركات (المغرب) ٣/ ٤٣٥.

(٣) أحمد الناصري م.س. ٨/ (٧٣-٧٥). محمد فتاح البزوي م.س. ص: ١٤٨.

(٤) المرجع نفسه ٨/ (٤٥-٤٧). المرجع نفسه ص: ١٤٨.

(٥) محمد بن الطيب القادري م.س. ٤/ ١٢٤.

(٦) المرجع نفسه ٤/ ١٧٦.

(٧) أحمد الناصري م.س. ٨/ ٥١.

(٨) أبو القاسم الزباني (التاج) ص: ١٨٥-١٨٨. والرسالة المذكورة وردت بدون تاريخ.

وإذا كانت هذه الحادثة تبرز لنا أسماء سبعة بيوتات من أسماء البيوتات الشريفة بالمغرب خلال عهد هذا السلطان، فإنها تؤكد على كون أصحاب هذه الفئة الاجتماعية كان لهم وزن يؤثر في سير الأحداث بهذه المدينة.

وخلال سنة ١٢٣٥/١٨٢٠ حدثت فتنة بفاس بسبب نزاع وقع بين قاضيها العباس بن أحمد التاودي، ومفتيها الفقيه محمد بن إبراهيم الدكالي في قضية جرت بين شريفيين: واحد شفشاوني حسني، والآخر عراقي حسيني. وكتب جماعة من المدرسين وطلبة العلم رسالة شكوى تبرز أن حكم القاضي يعتبر جائراً. ولكن السلطان: «لكمال أناته وعقله، لم يقبل شهادة عالم على مثله»<sup>(١)</sup>.

ولما رأى المشتكون أن السلطان المذكور: (لم يساعدهم هجموا على القاضي وهو بمجلس حكمه. وأرادوا قتله. وسدد نحوه الشريف أبو عبد الله محمد الطاهر الكتاني كابوساً أخرجه فيه فأخطأه، فانزعج القاضي، ولزم بيته...)»<sup>(٢)</sup>.

واعتقد أن الحادثة تبرز لنا سمو مكانة أهل البيت لدى عامة الناس على العموم، ولدى فئة طلبة العلم وأهله على الخصوص. كما توضح لنا أن بعض أهل البيت كانوا يقومون أحياناً بأخذ الثأر لقرباتهم.

ورغم وقوع هاتين الحادثتين فإنهما لم تنالا من حسن العلاقة التي جمعت بين السلطة المركزية والأشراف، ثم أن هذه السلطة قد أغدقت العطايا لفائدة أصحاب هذه الفئة الاجتماعية.

#### ت - عطايا السلاطين الثلاثة لصالح أهل البيت:

لما تولى زمام السلطة المولى محمد الثالث بعد بيعته لمراكش، توجه إلى مدينة فاس وأجزل العطاء لكثير من الفئات الاجتماعية ومن جملة هذه الفئات الأشراف<sup>(٣)</sup>.

ثم أمر سنة ١١٧٩/١٧٦٥ بصرف ريع ضريح سيدي أحمد بن محمد الشاوي الكائن بحومة الجرف من عدوة فاس القرويين لصالح الشرفاء القادريين الحسينيين<sup>(٤)</sup>.

(١) أحمد الناصري م.س. ١٤٧/٨.

(٢) انظر إلى أحمد الناصري م.س. ٨/ (١٤٧-١٤٨).

(٣) أحمد الناصري م.س. ٥/٨.

(٤) محمد بن الطيب القادري م.س. ٤/ (١٦٧-١٦٨) وصاحب الضريح المذكور هو أحد العلماء والصلحاء

بمدينة فاس. وهو من عرب الشاوية. ويرجع نسبه إلى عرب الحجاز من بني هلال وبني سليم الذين نقلهم

الفاطميون إلى الصعيد، ثم إلى برقة، وإفريقية، ثم قام يعقوب المنصور بإدخالهم إلى المغرب الأقصى.

وتوفي سنة ١٠١٤/١٦٠٥. وضريحه مشهور بمدينة فاس. ونجد من مصادر ترجمته: - سليمان الحوات

(الروضة المقصودة) ص: (٣٢-٣٣). مخطوط بالخزانة العامة رقم: ك. ٢٣٥١ - عبد السلام بن الطيب

القادري (معتمد الراوي بمناقب سيدي أحمد الشاوي)، مخطوط بالخزانة العامة رقم: د. ٧٧٧ - عبد الكريم

الكتاني (روض الأنفاس) ص: ٢٧٨ مخطوط بالخزانة العامة رقم: ك. ١٠/١٢٦٤، محمد بن الطيب =

ولقد أصدر هذا السلطان ظهائر شريفة لفائدة ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم. وهكذا أصدر ظهيراً سنة توليته زمام السلطة لفائدة شرفاء أولاد الولي سيدي خلف الله يتضمن احترامهم، وإخراجهم من زمرة العامة، ودعوتهم لصرف زكاتهم وأعشارهم لصالح ضعفائهم<sup>(١)</sup>.

وخلال سنة ١١٩٠/١٧٧٦ أصدر ظهيراً يتضمن تخصيص مال إراثة المنقطعين بفاس لفائدة الشرفاء بهذه المدينة. ويحدد هذا الظهير ست عشرة طائفة منهم للاستفادة من هذا الامتياز المادي، سواء من السبط الحسيني كالأدارسة والعمرانيين، أو من السبط الحسيني كالعراقيين والصقليين<sup>(٢)</sup>.

وخلال سنة ١١٩٩/١٧٨٤ أصدر ظهيراً لفائدة الشرفاء الأدارسة أهل تغمرت ضمن احترامهم من جهة، وإعفاءهم من التكاليف والوظائف السلطانية من جهة ثانية<sup>(٣)</sup>. أما بخصوص شرفاء تافيلالت فقد أصبحوا يحصلون كل سنة على مائة ألف مثقال، إضافة إلى ما كان ينعم عليهم بطريقة مستمرة<sup>(٤)</sup>.

ولقد أصبح بقية شرفاء المغرب يحصلون على نفس الحصة من المال سنوياً<sup>(٥)</sup>. وخلال سنة ١١٨٩/١٧٧٥ وصلهم بـ: ٢٠٠٠٠٠ دينار<sup>(٦)</sup>.

ومما يسجل بمداد الفخر لهذا السلطان بخصوص العطايا لصالح الشرفاء، أن نهجه هذا الاتجاه لم يقتصر على شرفاء المغرب، بل تجاوز حدود هذه البلاد السياسية، وذلك أنه وصل شرفاء الحجاز واليمن بصلات كبيرة.

وهكذا بعث صحبة ولده المولى عبد السلام ألف سبيكة من الذهب لأشراف الحرمين الشريفين وينبع وبدر وغيرهم بالحجاز<sup>(٧)</sup>.

وأرسل سنة ١١٩٩/١٧٨٤ لشرفاء الحجاز واليمن ٣٥٠٠٠٠ دينار<sup>(٨)</sup>. ولقد أصبحت

= القادري: م. س. ١/ (١٣٢-١٣٣). كتاب (الكواكب الضاوي في نعمت الراوي بمناقب سيدي أحمد الشاوي) مخطوط بالخزانة العامة رقم: د ٧٩٩، - محمد الكتاني (سلوة الأنفاس) ١/ (٢٧٩-٢٧٤).

(١) نص هذا الظهير ورد عند محمد الخلفاوي المخلوفاوي الحسني (بهجة الأبصار في جميع من وقفت على تحقيق نسبه من آل النبي المختار) ص: ٣٨٢ مخطوط بالخزانة العامة. رقم: ك ١٢٥٦/٤.

(٢) بخصوص نص هذا الظهير فانظر إلى عبد الرحمن بن زيدان (الإتحاف) ٣/ (٢٣٤-٢٣٦).

(٣) ورد نص هذا الظهير عند محمد الخلفاوي المخلوفاوي الحسني م. س. ص: ٤١٠.

(٤) أحمد الناصري م. س. ٧٠/٨.

(٥) المرجع نفسه، ٧٠/٨.

(٦) عبد الرحمن بن زيدان (الإتحاف) ٣/ ٢٢٦.

(٧) المرجع نفسه ٣/ (٢٢٧-٢٢٨).

(٨) أحمد الناصري م. س. ٥٧/٨.

١٠٠٠٠ مثقال راتباً سنوياً لأهل الحرمين الشريفين، وشرفاء الحجاز واليمن<sup>(١)</sup>، ومن أجل ضمان استمرارية هذه السياسة فقد حبس هذا السلطان أملاكاً من مداخيلها الشرفاء<sup>(٢)</sup>. وقصارى القول أنه بخصوص هذا المحور، فإننا نجد أن هذا السلطان قد أغدق كثيراً على الشرفاء. و(أغناهم عن غيره، وملاً وطابهم من بره وخيره)<sup>(٣)</sup>. أما السلطان المولى اليزيد فقد كان (ذا سخاء وجود وإنعام، معتنياً بجوائز أهل البيت الكريم)<sup>(٤)</sup>. ومن أجل نفس الغاية أصدر ظهائر لصالح بعض آل البيت تأمر بتعظيمهم، كما هو الشأن بالنسبة لظهير شريف أصدره لصالح الطاهر بن محمد الخرشفي بتاريخ ١٢٠٤/١٧٨٩<sup>(٥)</sup>.

ورغم أن المولى سليمان أمر بمنح تسليم مال إراثة المنقطعين بفاس على شرفائها لما كثر أديعاء النسب الشريف، فإنه (أغناهم عنه بالعطايا المترادفة)<sup>(٦)</sup> وشهر بـ: (إحسانه لآل البيت منتهى الإحسان)<sup>(٧)</sup>.

وعلى سنة أبيه أنهم هذا السلطان على الشرفاء بالمغرب بـ: ١٠٠٠٠٠ مثقال، باستثناء ما كان ينعم عليهم كل سنة من سنوات حكمه<sup>(٨)</sup>.

وبدوره أصدر ظهائر لصالح بعض الشرفاء، ونجد ظهيراً منها أصدره سنة ١٢٠٦/١٧٩١ لفائدة الشريف علي بن بركة وهو يأمر بتوقيره واحترامه<sup>(٩)</sup> وأصدر ظهيراً آخر سنة ١٢١١/١٧٩٦ وهو يأمر بتوقير واحترام محمد بن القطب أحمد الصقلي الحسيني، وأخيه عبد السلام، وأولاد أخويه علي وهاشم، ودفع زكاتهم وأعشارهم للفقراء من أسرهم<sup>(١٠)</sup>. وهكذا نجد أن المؤلف عاصر حقبة زمنية من اهتمام السلطة المركزية وعامة الناس

(١) المرجع نفسه ٧٠/٨.

(٢) محمد العلوي (الفتوحات الإلهية) ص: ١ من مقدمة المدني بن الحسني.

(٣) إدريس العلوي م.س. ١٦/١. وبخصوص دفتر هدايا وصلات السلطان المولى محمد الثالث لصالح أشراف الحرمين الشريفين والحجاز واليمن ومصر والشام وللأشراف العلويين فيوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بتاريخ ١١٩٩/١٧٨٤ ضمن مصورات جائزة جلالة الملك الحسن الثاني (حرف: ر) سنة ١٤٠٢/١٩٨٢ جائزة المخطوطات والوثائق.

(٤) محمد الكتاني م.س. ٢٣١/٢.

(٥) ورد نص هذا الظهير عند إبراهيم حركات (المغرب) ٣/ (٥٤٤-٥٤٥).

(٦) أبو القاسم الزياتي (التحفة) ص: ١٣.

(٧) إدريس العلوي م.س. ١٧٤/١.

(٨) أحمد الناصري م.س. ١٣١/٨.

(٩) هذا الظهير هو الوثيقة رقم: ٢١٦ من جائزة جلالة الملك الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة ١٣٩٤-١٩٧٤. المديرية العامة للثقافة، قسم الخزانات والمخطوطات والوثائق. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة - الرباط.

(١٠) هذا الظهير توجد نسخة منه لدي، ووقفت عليه بخزانة خاصة.

وخاصتهم بالأشراف. وإذا كانت السلطة المركزية قد قامت بتحقيق أنساب الأشراف خلال هذا العصر، فإن التأليف في الأنساب عامة وأنساب الأشراف خاصة قد عرف ازدهاراً وتقدماً لم يسبق لهما مثيل، فكيف يتجلى ذلك؟

#### ٤- نظرة موجزة عن كتب الأنساب خلال عصر السلاطين الثلاثة:

لو حاولنا استعراض جل كتب الأنساب التي ألفت خلال هذا العصر لطال بنا المقام. غير أننا نكتفي بذكر بعض النماذج. وعموماً يلاحظ وجود (تضخم في مؤلفات الأنساب)<sup>(١)</sup>. فالسلطان المولى محمد الثالث ألف في بعض مناقب أهل البيت<sup>(٢)</sup>. وبفضل توجيهه ألف محمد العلمي كتاب (فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير)<sup>(٣)</sup>. ونجد كتاباً في نسب العلميين<sup>(٤)</sup> لمحمد بن عبد القادر العلوي الحسني السجلماسي. كما أن كتاب (عناية أولي المجد) يؤكد أن السلطان المولى سليمان كان له إلمام كبير بعلم الأنساب.

أما على صعيد التأليف بمبادرات خاصة من قبل العلماء، فنجد كتاب (درة المطالب في نسب بني أبي غالب)<sup>(٥)</sup> لمحمد بن الطيب القادري، وهذا الكتاب عبارة عن أرجوزة في التعريف بنسب الأشراف الغالبيين، و(أرجوزة في الفروع العلوية)<sup>(٦)</sup> لمحمد التهامي بن عبد الله العلوي اليوسفي الشاكري المتوفى سنة ١٢١٠/١٧٩٥، ودفترين متعلقين بإحصاء الأشراف العلويين بتأليف لمؤلفين مجهولين<sup>(٧)</sup>.

أما سليمان الجوات فألف كتاب (قرة العيون في الشرفاء القاطنين بالعيون)<sup>(٨)</sup> وهم الشرفاء الدباغيون الحسنيون القاطنون بحي العيون من عدوة فاس القرويين، ولا زال عقبهم إلى اليوم قاطنين بنفس الحي بالدار رقم: ٢٣.

ولقد ألف أبو القاسم الزباني كتاب (تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب)<sup>(٩)</sup>، ونظم (أرجوزة حول بعض فرق الجوطيين بفاس ومكناس)<sup>(١٠)</sup>.

- (١) محمد المنوني، المصادر التاريخية المدونة في العصر العلوي الثالث، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ع: ١٢/ ص: ١٤٠. سنة ١٤٠٦-١٩٨٦.
- (٢) انظر كتابه: (الفتوحات الإلهية).
- (٣) ورد ذكره بهامش سابق.
- (٤) هذا الكتاب وقفنا عليه مخطوطاً بخزانة خاصة ومقياسه: ٢١، ١٥، ٥ ومسطرته: ٢٥. وعدد صفحاته: ٢٧ وهو بدون تاريخ.
- (٥) يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة رقم: ك ٩/١٢٣٤.
- (٦) مخطوط بالخزانة الحسينية رقم: ٤٧٧٧.
- (٧) وهما مخطوطان بالخزانة الحسينية تحت رقم: ٥٩١ ورقم: ٢٨٢٣.
- (٨) يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة رقم: ك ١٤٨٠.
- (٩) يوجد مخطوطاً بالخزانة الحسينية رقم: ٢٤٧١.
- (١٠) تشتمل على ٩٨ بيتاً وتوجد مخطوطة بالخزانة العامة رقم: ك ١٤/١٢٦٤.

وأخيراً نجد عبد الواحد بن محمد الفاسي ألف كتاب: (غاية الأمانة) ونظم أرجوزة: (إغاثة اللهفان)<sup>(١)</sup>.

والجدير بالذكر أنه إذا كان هذا العصر قد عرف تقدماً بخصوص التأليف في أنساب الأشراف، سواء بأمر من السلطة المركزية، أو بمبادرات خاصة من العلماء، فإن التأليف في هذا الميدان شمل أيضاً نسب الأسر التي لا تنتمي للنسب النبوي الشريف، ومثالا ذلك هما جدول حول تسلسل الأسرة الفاسية الفهرية<sup>(٢)</sup>، وضعه محمد فتح بن أحمد الفاسي، و(تقييد في نسب أسرة الدريج بفاس وتطوان)<sup>(٣)</sup>، لسليمان الحوات.

وخلاصة القول أن فئة الأشراف لعبت أدواراً متنوعة في تاريخ المغرب منذ قدوم المولى إدريس الأول بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، كما يلاحظ أن المغاربة قاموا بتعظيم المنتسبين لهاته الفئة، وتحقيق أنسابها. وتجدر الإشارة إلى أن البحث في تاريخ الأشراف بالمغرب وتحقيق أنسابهم لا زال قليلاً رغم توفر المادة العلمية، ورغم أن هذا البحث يساهم في سد ثغرات وتصحيح أخطاء متعلقة بجوانب من هذا التاريخ. ولقد أشار محمد جواد مغنية إلى كون موضوع آل البيت تتفرع عنه بحوث شتى، تتصل بحياة المسلمين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية<sup>(٤)</sup>.

وفي هذا الإطار نجد أن كتب الأنساب المغربية بصفة عامة، وكتب أنساب آل البيت منها بصفة خاصة، تمدنا بمادة علمية عن هذا التاريخ، ولكن يلاحظ أن أغلبية الدراسات التاريخية المغربية لا تعتمد عليها، فكيف يمكن دراسة تاريخ المغرب - الذي يتميز بحكم الأشراف الأدارسة والسعديين وخاصة العلويين - دون الاطلاع على هاته الكتب؟ وكيف يمكن دراسة أدوار فئة الشرفاء الذين يعتبرون من الفئات التي تكون البناء الاجتماعي المغربي دون الاطلاع على هاته الكتب كذلك؟.

ومما يميز كتب أنساب الأشراف المغربية كونها لا تقتيد بإطار مكاني معين وبفترة زمنية محددة، بل تتضمن نسبهم وتاريخهم حسب المادة العلمية المتوفرة لمؤلفيها. وتعتمد على مصادر ووثائق متنوعة أصبح الكثير منها اليوم مفقوداً، وتمدنا بجوانب من السيرة النبوية، وبسير أعلام أهل البيت، وبتراجم لأعيان البيوتات الشريفة من صلحاء وعلماء تقلدوا خطاً دينية وعلمية كالقضاء والتدريس، وتحدثنا عن بعض الجوانب الدينية، كحديثها عن زوايا الأشراف، وبعض الجوانب السياسية كعلاقة فئة الأشراف بالجهاز الحاكم، وعن نفوذ هاته الفئة الاجتماعية، وأحياناً تبرز وزن بعض أفرادها الاقتصادي...

(١) قمت بتحقيقهما، ولم ينشرا بعد، فالكتاب خاص بالبيت الصقلي، والأرجوزة خاصة بالبيت القادري.

(٢) يوجد مخطوطاً بالخزانة الحمزوية بإقليم الراشدية رقم: ٣٥١.

(٣) يوجد مخطوطاً بالخزانة الحسينية رقم: ١٣٣٩.

(٤) محمد مغنية، كتاب (أهل البيت، منزلتهم ومبادئهم)، ص: ٥.



وأختم هذا المقال بمقولتين لعالمين مسلمين، فالأول من المشرق، وهو أحمد بن حجر الهيثمي الذي يقول عن البحث في النسب الشريف: «وينبغي لكل أحد أن تكون له غيرة على أهل النسب الشريف وضبطه، حتى لا ينتسب أحد إليه صلى الله عليه وسلم إلا بحق»<sup>(١)</sup>. أما الثاني فهو من المغرب وهو محمد بن أبي غالب بن السكاك العياضي الذي يتحول عما يناله الباحث في آل البيت وعن مطلبه الأخروي الحافز لتأليفه كتاباً حولهم: «... إيه معاشر أهل البيت الكريم قد خدمتكم بهذا التأليف، وخديم الكرام تلحقه العناية وتكتفه الحرمة، وقد تمسكت بعنايتكم عند زلازل الموت، وظلمة القبر، ووحشة أهوال يوم القيامة وشداؤها...»<sup>(٢)</sup>.

(١) أحمد بن حجر الهيثمي (الصواعق المحرقة) ص: ٤٥.

(٢) محمد بن السكاك، (نصح ملوك الإسلام). ص: ٣٣.

## مسالك التأليف في فقه النوازل بالغرب الإسلامي

الدكتور مصطفى الصمدي(\*)

مدخل:

إن المطلع على المدونات الفقهية، ومجامع النوازل، وكتب الفتاوى يجد نفسه أمام بحر زاخر متلاطم الأمواج، خصوصاً إذا علمنا أن أغلبها لم يكن مقصوداً للتأليف، ومن ثم يجد الباحث نفسه أمام كتب كتبت عن كل شيء، ولاست كل ما له صلة بحياة الناس في موضوعات شتى.

وقد توالى حركة التأليف - بمعنى الجمع - بتوالي الأيام وتعاقب الحوادث والأقضية، ولعل الذي شغل الفقهاء عن بيان منهجهم وتنظيم مادة مؤلفاتهم، هو سرعة وتيرة تلاحق الحوادث، مما لا يسعف الفقيه في ترتيب المادة وجمعها وتبويبها، فكان له في كل يوم وقائع ونوازل، بل وفي كل ساعة ولحظة، وكأن الفقيه أخذت منه المسائل وقته كله في إيجاد الأجوبة المناسبة، وهي عملية ليست بالسهلة، لما تتطلبه من مراجعة واستحضار لأقوال السابقين، وإعمال النظر في الترجيح والاختيار والتدقيق في الوقائع وتقليب المسائل، على أن أمر التصنيف والتبويب والتقييد أوكل في الغالب إلى التلاميذ الذين تولوا فيما بعد جمع المادة مما سمعوه عن شيوخهم المفتين.

إن المفتي غالباً ما كان يجد نفسه بين كثرة النوازل وتشعب قضاياها، وبين مطاردة عنصر الزمان الذي يستلزم منه فض نوازل اليوم لملاحقة أقضية الغد، وهكذا... وهذا هو السر في أن الغالب على مادة هذا الفن أنها كانت من جمع وتقييد اللاحقين من التلاميذ والنساج.

إن هذا العلم لم يعطه حقه من التصنيف والتبويب، ولعل الداعي إلى ذلك أننا وجدنا أعلام المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي مشغولين بالشروح والتعليق والهوامش على أمهات كتب المذهب، كالمدونة، والواضحة، والعتبية، ومختصر ابن الحاجب، وتهذيب البرادعي،

(\*) أستاذ باحث بكلية الآداب بنمسيك - المغرب.

وجامع ابن يونس وغيرها.. وهذا لا يعني أنهم أغفلوا واقع الناس وقضاياهم، ولم يهتموا بظواهر الحياة المطروحة. لا أبداً وإنما الذي أقصد التنبيه إليه، هو ضخامة مادة النوازل وبقاؤها في الغالب غير مرتبة ولا مبوبة، مما يجعل مهمة الباحث فيها غاية في العسر والصعوبة.

وقبل الحديث عن أشكال التأليف في هذا الفن لابد من بيان المصطلحات التي يكثر استعمالها بين الدارسين، والتي يقف عليها الباحث وهو يكتنف بحر هذا الموضوع.

ف نجد مثلاً النوازل والفتاوى والأجوبة والمسائل والأقضية والأسئلة، وكلها تطلق ليراد بها نوع واحد من الكتب الفقهية التي اهتمت بتفاصيل شؤون الناس في حياتهم اليومية في مجالات متعددة، من عبادات ومعاملات وعادات وعقائد وسلوك وأخلاق وبدع وعلاقات مع الغير، وغيرها من الموضوعات التي تلامس حياة الناس، يفزعون فيها إلى ذوي المعرفة ممن ينتصبون لمهمة الإفتاء، فيجدون الحلول والأجوبة المناسبة.

فيقال مثلاً: نوازل فلان، كنوازل العلمي أو نوازل ابن عرسون، أو النوازل الكبرى والصغرى للوزاني مثلاً، كما يقال: فتاوى فلان، مثل فتاوى ابن رشد أو فتاوى الشاطبي، ويقال: كذلك مسائل فلان، ومنها مسائل أبي الوليد، ويقال: أجوبة فلان كأجوبة ابن ورد... وهكذا.

وكلها تجمع محتويات ومضامين واحدة، وعليه، فإنها أسماء لمسمى واحد. ويطلق مصطلح النوازل هو الغالب الشائع عند المغاربة، في إشارة دقيقة إلى صِبغتها الواقعية، وظرفيتها الزمانية، وفي إقصاء شبه تام للافتراضات النظرية التي غالباً ما كان الفقهاء يشيخون بأوجههم عنها، ولا يولونها اهتمامهم، تأسيساً بأصول إمام المذهب في ذلك.

وبناء على ذلك فالغالب في إطلاق مصطلح النوازل عند المغاربة يسير إلى واقعيتها وحلولها بالناس، وإيدانها للفقهاء بانطلاق العملية الاجتهادية بحثاً عن المخرج، وإيجاداً للحكم المناسب باستقراء النصوص المقررة، واللجوء إلى المقارنة أو الترجيح أو التأويل أو التخصيص... وهكذا.

ولما كان الفقه الإسلامي عمدته تنظيم حياة الناس في المعاش والمعاد، كان واقعياً في أحكامه يجاري الوقائع ويساير المتغيرات، ويظل السؤال والاستفتاء قائماً قيام الحياة، فالنصوص متناهية، وقضايا الحياة مستمرة مسترسلة.

إن طبيعة فقه النوازل بالغرب الإسلامي عموماً، وبالأندلس خصوصاً، عرف تطبيقه العملي، وهو ينصهر مع خصوبة المجتمع الأندلسي الذي ازدهرت به الفتيا، وانتصب لها فطاحل الأئمة، ممن كانت لهم اليد الطولى في ضبط قواعد المذهب وأصوله، فأغنوا هذا الحقل بإجاباتهم وفتاويهم التي حفظ لنا الزمن بعضها، ولا يزال الكثير منها غائراً تشير إليه التراجمة ومصادر التاريخ، وسجلات الأدب، عدت على أغلبه عوادي الزمن مما أصاب تلك

البلاد الذاهبة.

لم يدع هؤلاء المفتون مجالاً من مجالات الحياة إلا وعالجوه المعالجة الشرعية المناسبة، فبحثوا في الأصول النظرية من الأمهات الفقهية، وربطوها بالواقع المعيش بكل ملابساته وخصوصياته، ومن ثم نشطت حركة التأليف في كثير من الأمور التي لها علاقة بتنظيم شؤون الحياة كالحسبة والوثائق والشروط، وموضوعات الأحوال الشخصية كالنفقة والفرص وتقديراته، ومواضيع الفلاحة والمياه والصناعة والتجارة وأحكام البيوع والسكة، والتسعير والمضاربة، وميادين القتال والجهاد وأحكام أهل الذمة وغيرها من المسائل التي خُصت، كما سنرى، بتأليف خاصة وأخرى جمعت هذه الموضوعات كلها.

إن نظرة متأنية إلى هذا الموروث الفقهي تعطينا صورة حية عن واقع هذه الأمة الاجتماعي والسياسي والتاريخي في هذا الثغر من العالم الإسلامي. إنه نتاج عقول تفاعلت مع الواقع في زمن معين وفي بيئة معينة.

إن المطلع على كتب النوازل والفتاوى ليلمس بجلاء ملحظين أساسيين:

أ- دقة هذه المصادر في تصوير واقع الحياة وقضايا المجتمع، مما جعلها تحظى باهتمام المؤرخين، باعتبارها من أصدق الوثائق وأضبطها.

ب- نطقها بمكانة الفقيه داخل المجتمع وبيان أدواته الاجتهادية ومصادره العقلية والنقلية وهو يجسد حقيقة الفقه الإسلامي وطبيعته المتطورة في استجابة للحوادث واستيعاب للمتغيرات.

ولعل هذه المدونات التي تُعد مرآة حقيقة تعكس واقع الناس وقضاياهم، وما عنَّ لهم من ملومات ومشكلات في أمور دينهم، وتعطينا فكرة واضحة عن أن الفقه الإسلامي غير قابل للجمود، بل إنه يساير تطورات المجتمعات البشرية بمختلف معطياتها ومشاربها.

وقد كان المفتي يجلس للإفتاء زمناً طويلاً، وقد ينتقل من مكان إلى آخر، وحيثما حلّ وارتحل يكون مناراً ومرجعاً للسؤال والاستفتاء، فيحدث أن يجتمع لدى الفقيه الواحد عدد مهم من الأجوبة الصادرة عنه، فيعمد إلى جمعها في كتاب خاص، وهذا ما لم يكن متيسراً لغالبهم للأسباب التي شرحت آنفاً، وغالباً ما يكون مصير هاته الفتاوى تعهد التلاميذ أو الأولاد والأصحاب بجمعها وترتيب مادتها، وهذا الجمع قد يكون جمعاً خاصاً لفتاوى فقيه واحد، وقد يكون كما هو الشائع الغالب جمع فتاوى أو أجوبة كثير من الفقهاء على اختلاف بلدانهم وأزمانهم.

ولذلك لم تكن هذه الفتاوى على شاكلة واحدة من حيث طريقة الجمع والتصنيف، وإنما جاءت متباينة تبعاً لدواعي تأليفها وطبيعة ظروف واضعها. وباطلاعي على معظمها أمكنتني التمييز بين مناهج عديدة سأتحدث عنها بالتعريف على النحو الآتي:

وجدت بعض مؤلفات النوازل عمَدَ فيها جامعوها إلى ترتيب وتصنيف مجموعة من

فتاوى المتقدمين في بلد معين أو منطقة جغرافية محددة قد تضيق وقد تتسع، ثم يضيفون إليها فتاوى أخرى متنوعة لعلماء آخرين، وأحياناً، يضيف إليها هذا الجامع من فتاويه الخاصة إن كان من أهل الاختصاص الفقهي، كما حدث مع ولد عياض حين جمع فتاوى أبيه في مذاهب الحكام، وزاد عليها من فتاويه ما كمل به الكتاب. وكذلك فعل الونشريسي في المعيار الذي جعله جامعاً لفتاوى منطقة الغرب الإسلامي، عبر زمان ممتد من القرون الأولى إلى حدود المائة العاشرة، ثم أضاف إليه عديداً من فتاويه استُفتي فيها، وكان أشهرها فتواه في شأن من بقي بالأندلس بعد السقوط، والمحرمة عليهم بقاؤهم بين ظهرائي النصارى، وقد سمي فتواه هاته «أسنى المتاجر فيمن غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر».

وهناك صنف آخر من الفتاوى تجاوز فيه بعض الفقهاء الطريقة المعهودة في النوازل بانتظار الأسئلة، ثم إيراد الأجوبة المناسبة عنها، وهو صنف وجدته ماثلاً في ثنايا النصوص التاريخية، وهي فتاوى تتعلق ببعض الظواهر الاجتماعية والقضايا السياسية الملحة التي انبرى لها الفقهاء دون أن ينتظروا بشأنها سؤالاً، فبينوا موقف الشرع، فيها إما تنبيهاً للعوام، أو تحذيراً للسلطان في غير محاباة ولا مجارة.

وتندرج هذه الفتاوى في إطار المهمة الأساسية التي كان يستشعرها العلماء وهي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وغالباً ما يفرض هذا النوع من الفتاوى إلى مواجهات مع السلطة السياسية التي كانت ترى في هذا النوع من الفتاوى تحريضاً للرعية، واستنفاراً لها لمعارضة الحكام في سلوكياتهم الزائغة عن الشرع، على أن هذا النوع من الفتاوى لم يكن محل إجماع بين الفقهاء، بل وُجد من الفقهاء من بقي في صف السلطة يزكي مواقفها، ويصف الآخرين بالخروج عن الجماعة وعن طاعة أولي الأمر، وهؤلاء غالباً ما كان الحاكم يختارهم إلى جانبه لاستصدار الفتاوى المزكية للمواقف، وتسجل لنا كتب التاريخ مساجلات ومراجعات بين الفقهاء في هذا النوع من الفتاوى<sup>(١)</sup>.

وضمن هذه الأنواع، هناك التأليف المصنف وهناك غير المصنف، ومؤلفات مقصودة للمناظرة والمراجعة، وأخرى للتوجيه والتنظير، وهكذا.

وقد اعتمدت هذا التقسيم لما لاحظته، وأنا أجمع هذه الدواوين من بطون مصادر التراجم والفهارس من تناثر وتفرق يجعل هذه المؤلفات غائرة منسية، وكأنني بها تصرخ وتستجدي جهود الباحثين وهم المتخصصين لجمعها وسلوكها في عقد منتظم عن طريق الفهرسة والجمع والدراسة والتحليل. وهو عمل ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة من

(١) محمد أستيتو: النوازل وطبيعة مصادرها وحدود توظيفها في الكتابة التاريخية، مجلة كلية الآداب وجدة، عدد ٥- ١٩٩٥.

أهل الاختصاص، وعبر جهود المؤسسات العلمية الجادة. وحسبي أنني أضع اللبنة الأولى لبناء معجم تراجم المفتين وأصحاب النوازل بالغرب الإسلامي، على غرار معجم الأدباء والمفسرين ومعجم المتصوفة، وكذا كتب الطبقات من لغويين ونحويين وقراء وغيرها، وكذلك بناء فهرسة جامعة لمؤلفات فقه النوازل حسب التسلسل التاريخي لهذا التأليف، وهو أمر هام ومفيد في تتبع تطور حركة التأليف، مما سيذلل بعض الصعاب، ويوفر بعض الجهد على الباحثين في هذا المجال. وقد تبين بالبحث أن مناهج التصنيف يمكن ترتيبها كالآتي:

### ١- التأليف بحسب الأماكن والبلدان:

وهذا النوع من التأليف في النوازل جعله أصحابه خاصاً بمنطقة جغرافية محددة، ولم يشأوا أن يخلطوه بنوازل غيرها من البلدان، فكان أفيد للباحث في الوقوف على مشاكل تلك البيئة وأقضيتها، وأعراف أهلها وانشغالاتهم اليومية، ومعرفة أعلام الإفتاء بها. وهذا النوع من التأليف يفيد الباحث أيضاً في إدراك معالم مؤسسة الإفتاء بهذه المنطقة أو تلك في زمن معين، فتصبح مدرسة الإفتاء بها محددة المعالم بينة التوجه، من حيث الأدوات والمصادر والمواقف والتلاميذ والخصائص... إلى غير ذلك من الاستنتاجات العلمية الهامة.

وينبغي الإشارة إلى أن التحديد الجغرافي لهذا النوع من التأليف قد يتسع فيشمل منطقة جغرافية واسعة، وقد يضيق فيشمل نوازل فقهاء ينتسبون لمدينة واحدة. ونذكر من أمثلة هذا المسلك:

١- كتاب «المعيار المعرب والبيان المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب» لأحمد بن يحيى الونشريسي (ت ٩١٤هـ). هذا الكتاب جعله صاحبه موسوعة فقهية لاجتهادات الفقهاء وفتاويهم على امتداد هذه المنطقة، منذ حوالي نهاية القرن الثالث إلى حين وفاته. فكانت بذلك أهم مجموعة فقهية تهتم منطقة المغرب العربي باصطلاح اليوم. لقد جعله صاحبه وعاء صب فيه كل النوازل والفتاوى المغاربية الأندلسية، فاعتبر أهم مدون في النوازل لا يعرف له نظير في القدر والمحتوى.

ولقد طبع المعيار مرتين: الأولى على الحجر بفاس عام ١٣١٤هـ في اثني عشر جزءاً بعناية وتحقيق جماعة من الفقهاء، والثانية محققة على يد جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي في ثلاثة عشر جزءاً، خصص الجزء الأخير منه للفهارس، وذلك سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م بعناية وزارة الأوقاف.

٢- كتاب «الحديقة المستقلة النضرة في الفتاوى الصادرة عن علماء الحضرة»: لمؤلف مجهول، وهو أهم ما وصلنا من نوازل حضرة غرناطة زمن احتضارها، فقد جمع فيه صاحبه فتاوى أشهر أعلام غرناطة وأعمالها، جمعه بعد سنة ٨٣٨هـ وفاة أبي القاسم بن سراج

آخر المفتين الذين يترجم عليهم المؤلف، وقبل سنة ٨٦٥ هـ سنة وفاة الفقيه محمد السرقسطي الذي يذكره كثيراً، ويورد فتواه فيقول: حفظه الله.

٣- كتاب «جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام» لأبي القاسم البرزلي (ت ٨٤٤ هـ)<sup>(١)</sup> فقيه تونس ومفتيها.

وهو من أضخم كتب النوازل بالغرب الإسلامي، سجل فيه صاحبه فتاوى كبار شيوخ الإفريقيين والأندلسيين والمغاربة، ودون فيه مراجعات ومناظرات جرت بين علماء هذه المنطقة، فكان بذلك منضبطاً لهذا التحديد المنهجي الذي وضعت.

ومما يدل على قيمة هذا الكتاب وغزارة مادته النوازية في هذا الشق من الغرب الإسلامي أن الفقهاء المغاربة ينقلون عنه كثيراً، ويعتمدونه في مؤلفاتهم وفتاويهم. وممن اختصرها: أحمد بن يحيى الونشريسي في كتاب عنوانه بـ «مختصر أحكام البرزلي» في نحو ٣٣٨ صفحة، يوجد مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٢١٩٨ د. ضمن مجموع. وينقل عنه كثيراً العلمي الحسني الشفشاووني في نوازله وآخرون.

٤- كتاب «الجواهر المختارة فيما لقيته من نوازل جبال غمارة» لصاحبه أبي فارس عبد العزيز بن الحسن مهدي الزياتي (ت ١٠٥٥ هـ)، جل هذه النوازل تتعلق بقضايا وقعت في الغرب الشمالي: فاس ومكناسة، وتازة، وبالأخص منطقة غمارة، اشتغل بتحقيقه الباحث محمد مزين في إطار رسالة جامعية.

٥- كتاب أحكام ابن سهل وهو معروف بـ «الإعلام بنوازل الأحكام» ألفه عيسى بن سهل الأسدي الغرناطي (ت ٤٨٦ هـ)، وهو من الصنف الذي جمع أجوبة فقهاء ينتسبون لمنطقة واحدة، فقد جعله صاحبه خاصاً بفتاوى الأندلسيين، وهو من أقدم المجاميع الأندلسية في هذا المجال، لم يورد فيه إلا النادر من فتاوى القيروانيين التي ساقها على سبيل الاستئناس والاستشهاد، أما الأقضية والوقائع والحوادث والمشكلات، فمن بيئة الأندلس استقاها، ومن مجتمعاتها انتقاها، فجاءت فصول الكتاب بمعلومات تاريخية وحضارية خلال القرن الخامس الهجري، وهو من القرون الثرية ببلاد الأندلس من حيث أنماط العلاقات الاجتماعية بين مختلف الطوائف والملل من مسلمين ونصارى ويهود، وهي الفترة التي نشطت فيها مؤسسة القضاء الشوري الذي تولاه كبار علماء الأندلس ومفتيها.

٦- كتاب «الدرر المكنونة في نوازل مازونة» تأليف الفقيه يحيى بن موسى المازوني (ت ٨٨٣ هـ)، ويظهر فيه المحدد الجغرافي واضحاً، فقد ذكر صاحبه في مقدمته أنه جعله خاصاً بفتاوى علماء تونس وبجاية وتلمسان والجزائر.

(١) اختلف في تاريخ وفاته على ثلاثة أقوال: ٨٤١ - ٨٤٣ - ٨٤٤. راجع ابن مخلوف: شجرة النور. ص ٢٤٥، فهرست الرصاع ص ٥٥.

ينقل عنه الوئشريسى كثيراً، ولعله كان عمدته في جمعه مادة المعيار ليضيف إليه نوازل فاس والأندلس.

ويؤكد أحمد بابا التنبكتي هذا التحديد الجغرافي للكتاب حين ترجم لصاحبه فقال: «وَألف نوازله المشهورة المفيدة في فتاوى المتأخرين من أهل تونس والجزائر وتلمسان وغيرهم في سفرين»<sup>(١)</sup>.

٧- مجموع فتاوى علماء غرناطة، تأليف أبي القاسم محمد بن طركاظ العكي الأندلسي، تولى قضاء ألمرية سنة ٨٥٤هـ، ولم يعرف تاريخ وفاته.

جمع فيه نوازل فقهاء غرناطة، توجد منه نسخ عديدة، منها نسخة الخزانة العامة بالرباط ١٤٤٧د.

وواضح من هذه النماذج أن واضعيها التزموا بما حددوه في عناوين مؤلفاتهم، وبما شرطوه في التقديم لها، فجاءت جامعة لفتاوى علماء المنطقة وأجوبة فقهاءها من معاصري المؤلف أو من السابقين له، وغالباً ما تم ترتيب مادة الكتاب على حسب ترتيب أبواب الفقه.

## ٢- التأليف المتخصص في الموضوع الواحد:

وهذا الصنف اقتصر فيه أصحابه على التأليف في قضية واحدة دون خلطها بغيرها، فيكون الأمر دليلاً على أن المسألة طُرحت بحدة في المجتمع، فيطلب من الفقيه المفتي أن يخصصها بالتأليف المفصل حتى يُجلى جوانبها على ضوء قواعد المذهب ومقررات الشرع.

وهذا النوع غالباً ما يحليه أصحابه بعبارة «رسالة في كذا» أو «هذا تقييد في موضوع كذا»، وقد وجدتُها تخرج عن قاعدة تدوين النص النوازلي التي يحضر فيها السؤال ثم الجواب، فهي أجوبة من دون صيغة «سئل»، لكن تخصيصها بالتأليف المبسط والمفصل دليل على تضافر الأسئلة عنها، واستشكال أمرها، وإلحاح الناس عليها بما يفرضه الواقع وتمليه الحاجة، فينهض الفقيه ليبين وجه الشرع في ذلك، ويعيد الناس إلى الصواب في الأمر.

ويظهر في هذا النوع من التأليف الذي يشمل قضايا العبادات والمعاملات والسياسة الشرعية والأطعمة، وأحكام أهل الذمة وغيرها، براعة المفتي ونبوغه، ذلك أنه لا يحاكي ما هو مقرر في أبواب الفقه النظري، بل إنه يعتمد إلى ربط النصوص بالواقع بالنظر إلى النازلة في محيطها وظروفها، فيستدرك على السابقين ويرجح ويخالف، ويأتي من بعده ليؤلف في نفس الموضوع برأي مخالف ومغاير، وهكذا يمضي التأليف في النوازل في حركة دائمة ونشاط مستمر.

وقد وجدت لهذا الصنف نماذج كثيرة لكثرة المواضيع وتنوع قضاياها اقتصر على ذكر بعضها.

(١) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص ٣٥٩.



١- من المفتين من شغلهم أمر ضبط كتابة الوثائق والعقود والشروط التي تنظم المعاملات بين فئات المجتمع الأندلسي، وتروم حفظ الأنفس وصيانة الأعراس وحماية الحقوق والأموال، فألقوا في هذا الموضوع التأليف الكثيرة التي تشهد على حضوره بقوة، وهي مادة غنية بالنوازل، ثرية بالمعطيات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، وغيرها، من ذلك:

أ- كتاب «الوثائق والسجلات» للفقهاء الموثق محمد بن أحمد الأموي الأندلسي المعروف بابن العطار (ت ٣٩٩ هـ) اعتنى بتحقيقه ونشره الإسبانيان شاليمتا وكورينطي، ونشره المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد سنة ١٩٨٣، وقد كان منهجه في الكتاب أنه يورد الوثيقة وموضوعها، ثم يتبعها ببيان الوجه الفقهي فيها ويفسرها تفسيراً شافياً.

ب- «المقنع في علم الشروط» للفقهاء الأندلسي أحمد بن مغيث الطليطلي (ت ٤٥٩ هـ)، جعله صاحبه خاصاً بموضوع كتابة العقود وضبطها، فأورد فيه صيغاً كثيرة للعقود في مواضع مختلفة، ثم يتعقبها بالحديث عن فقه الوثيقة وما يندرج تحتها من أحكام.

والكتاب حققه الباحثان الإسبانيان فرانسيسكو خابير/ أغيري سادابي وهو من منشورات المعهد الإسباني للتعاون مع العالم العربي، العدد الخامس<sup>(١)</sup>.

ج- «المقصد المحمود في تلخيص الوثائق والعقود» لصاحبه علي بن يحيى الجزيري (ت ٥٨٥ هـ)، يشتمل على وثائق وعقود تضمنت نوازل شيقة في موضوع الزواج، وقد حقق ونشر على يد أسونشيون فريراس Asunacion Ferreras ونشره المعهد الإسباني للتعاون مع العالم العربي<sup>(٢)</sup>.

د- كتاب «المحتوى في علم الوثائق»، ذكره ابن بشكوال في الصلة عند ترجمته لأبي عمر أحمد بن عبد القادر الإشبيلي، وهو كتاب ضخم مطول بلغ أسفاراً عديدة وصلت إلى خمسة عشر مجلداً<sup>(٣)</sup>.

على أن التأليف في موضوع الوثائق والشروط توالى عبر تاريخ الأندلس لحاجة الناس الشديدة إليه، نذكر من بينها «وثائق ابن الهندي»، و«الوثائق المجموعة» لابن فتحون، و«وثائق الغرناطي» و«المنهج السالك» لابن زرقون، و«النهاية والتمام في الوثائق والأحكام» لأبي الحسن علي بن عبد الله المتيطي والمشهورة بالمتيطية، و«الطرر» لابن عات. . . وغيرها كثير مما لا يسع بسطه في هذا الباب<sup>(٤)</sup>.

(١) المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد ١٩٩٤.

(٢) المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد ١٩٩٨.

(٣) ابن بشكوال، الصلة (١/٤٤).

(٤) راجع عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ص ١١٣- ١١٨، فقد ذكر جملة من كتب الوثائق الأندلسية والمغربية.

٢- وجدنا من المفتين من اهتم بموضوع الحسبة أو ما يعرف بأحكام السوق، وإن كان لفظ الحسبة أعم وأشمل، وقد كانت من الخطط التي يُعين لها أصحابها، وأهلها يتولون النظر في أمور الناس ومعاملاتهم وما يضبط تصرفاتهم. وتذكر كتب التراجم كثيراً ممن اشتغل بهذا المنصب بتعيين من الوالي أو الحاكم، وتحتاج هذه المادة إلى استخراج وترتيب وجمع. وقد سجلت من المؤلفات في هذا الموضوع ما يلي:

أ- «أحكام السوق» ليحيى بن عمر الأندلسي (ت ٢٨٩هـ) من أقدم ما ألف في موضوع الحسبة، جمع فيه ما ينبغي للوالي أن يفعله في سوق رعيته من المكيال والميزان والأقفزة والأرطال والأواقي، وفيه: القضاء بالقيم وبيع الفاكهة قبل أن تطيب، والخبازين والجزارين، وبيع الدوامات والصور، والغش والتدليس، والملاهي والقذور المتخذة للخمر، وصاحب الحمام، وبكاء أهل الميت والخروج إلى المقابر، وفيمن يمشي بالخف الصرار، وفيمن يرش أمام حانوته، وفي الطين إذا كثر في السوق، وفيمن يحفر حفيراً حول أرضه أو داره أو يحدث لداره باباً، وفي اليهود والنصارى يشبهون بالمسلمين، وفي بيع أهل البلاد الشيء المائع، وفي التطفيف، ورفع السوق لواحد، وفي المحتكر.

مما سئل عن جميعه يحيى بن عمر فأجاب فيه ودون عنه، رواية أبي عبد الله بن شبل عنه<sup>(١)</sup>.

وقد كان الدكتور محمود علي مكي قد قام بدراسة هذا النص ونشره في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية سنة ١٩٥٦، فاعتبر من الباحثين الأوائل الذين تفتنوا لكتب النوازل ونبهوا إلى دررها، ودعوا إلى ضرورة استثمارها في دراسة الجوانب التاريخية والحضارية للمجتمع الأندلسي، تنضم إلى أعمال المستشرقين من أمثال جاك وشاخت ودوزي وكلود كاهان ولفي برونفسال وبرونشفيك وغيرهم، ممن نهلوا في دراساتهم التاريخية من كتب النوازل، هذا المنجم البكر حسب تعبير «شاخت»<sup>(٢)</sup>.

وقد نشر هذا النص مرة ثانية بتحقيق حسن حسني عبد الوهاب ومراجعة فرحات الدشراوي<sup>(٣)</sup>.

ب- ثلاثة وثائق في شؤون الحسبة، الأولى لمحمد بن أحمد بن عبدون التجيبي،

(١) راجع: محمود علي مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ١٩٥٦، المجلد الرابع. وابن شبل هو أبو عبد الله محمد بن سليم بن شبل الإفريقي سمع من سحنون وكان من الثقات، توفي سنة ٣٠٧هـ. انظر الديباج (٣١٢/٢) رقم ١١٨.

(٢) J. Schacht, Esquisse d'une histoire du droit musulman. Edit. Max Besson PAIS 3591 (Traduction Francaise). A la page 67 et 69.

(٣) طبع بتونس سنة ١٩٧٥.

والثانية لأحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحاسب، والثالثة لعمر بن عثمان بن العباس الجرسيفي، نشرها واعتنى بها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال، وصدرت عن مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٩٥ بالقاهرة.

وهذه الوثائق ضافية بمعلومات شيقة عن فصول الحياة العامة بالأندلس، وأحوال أهلها في معاشهم ومعاملاتهم، ومجالات عمل المحاسب وما يشترط فيه، وعلاقة الحسبة بالقضاء، وهكذا.

٣- «رسالة في أحكام البيان وال عمران وتنظيم المجال»: من تأليف عيسى بن موسى بن أحمد بن الإمام التطيلي الأندلسي المتوفى سنة ٣٨٦هـ، سماها «القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر»، وهي رسالة فريدة في موضوع كان لابن الإمام فضل سبق فيه، والغريب أنها لم تشتهر ولم تتل حظها من الدراسة مثل ما حظيت به رسالة ابن الرامي التونسي والمسماة بـ«الإعلان بأحكام البيان»، والتي جاءت صورة طبق الأصل لكتاب ابن الإمام وهذا بشهادة ابن الرامي نفسه.

والكتاب فيه معالجة لطيفة وقيمة للقضايا المتعلقة بالمباني وحقوق الجوار في السكن وقواعد المعاملات، فيحلل ذلك وفق مقررات الفقه الإسلامي وتوجيهات الشريعة، ولا يكتفي بذلك بل ينتقل إلى ما يطرح في ساحة القضاء من نزاعات ومشاكل.

والكتاب ظل حبيس الرفوف، إلى أن هيا الله له أحد أصدقائنا الباحثين للعمل على تحقيقه في إطار دبلوم الدراسات العليا بفاس.

وقد عمدت الأيسيسكو - نظراً لقيمة الموضوع - إلى طبعه ونشره بتعاون مع جامعة الزيتونة بتونس، وصدر سنة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م.

٤- «زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض» لصاحبه علي بن محمد بن علي بن باق، لم نعثر له على ترجمة، لكن نقولاً في الكتاب ترجح أنه عاش بعد النصف الثاني من المائة السابعة. وهو يهتم بموضوع النفقات والقروض مما كان مطروحاً بحدّة في المجتمع الأندلسي، وكان القضاء فيه غالباً ما يتم الاعتماد فيه على العرف والعادة بحسب حال المنفق والمنفق عليه.

وقد ألفه صاحبه وهو يعي بعمق مسؤوليته في تطبيق الشريعة الإسلامية في حياة الناس بمجتمع ألمرية الأندلسية، وكان قد تولى مهمة النظر في تقدير الفرض ببلده ألمرية، فاقتضت حاله استقصاء النظر والبحث فيما ذكره أئمة العلم، فقام كذلك وجمعه في هذا الكتاب كما ذكره في طليعته، ورتبه على مقدمة في ذكر المد وصفته وما يتركب منه، وتقدير الدراهم والدنانير وأنواعها بمدن الأندلس كقرطبة وغيرها. وعشرة فصول تتضمن أسماء المكاييل والموازين وأنواع النفقات، كنفقة الحوامل والقراية وملك اليمين والأيتام والأوصياء والحواضن والمراضع والأضحية، وضمان النفقة وكيفية توزيعها، والأطعمة وأنواعها

ومقاديرها، ومراتب الفروض وفرض الإدام والكسوة واختلافها باختلاف فصول السنة، ونفقة الحمام والسكنى، والفصل الأخير في الإخداًم وأحكامه.

وتتخلل هذه الفصول مسائل وفوائد مهمة ترجع إلى تقاليد الأندلسيين الاجتماعية من أطعمة وألبسة وأعراس، مما يفيد في دراسة التاريخ الحضاري لهذه المنطقة من الأندلس السليبية<sup>(١)</sup>.

٥- وفي موضوع الحوادث والبدع توالى التأليف مخبرة بضجر الفقهاء مما كان يظهر بالمجتمع الأندلسي من بدع وأهواء فيها خروج عن السنة وسيرة السلف، فشدّدوا النكير على أصحابها وشنعوا عليهم فعلهم، بل وحاربوا ذلك بما أوتوا من علم ونظر، وأذكر في هذا الصدد:

كتاب «البدع والنهي عنها» لابن وضاح (ت ٢٨٦هـ)، صدر مرتين: الأولى بعناية الأستاذ محمد دهمان، والثانية بتحقيق الدكتورة مارييل فيرو.

كتاب «الحوادث والبدع» لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ) وقد صدر بتحقيق الدكتور محمد الطالبي، كما عُني بتحقيقه الدكتور عبد المجيد التركي.

على أن أمر البدع استشرى وعمّ في بلاد الأندلس أيام الدولة النصرية في أمور كثيرة مست العقيدة ومجال العبادات والعادات، وسجلت لنا كتب النوازل ما كان بين الفقهاء في هذه الفترة من اختلاف في تقرير مفهوم البدعة، ومن ثمّ جاءت مواقفهم بين مترخص ومجيز ومتشدد، ففي فتاوى ابن لب وابن سراج واعتصام الشاطبي وفتاواه الشيء الكثير<sup>(٢)</sup>.

٦- رسائل في موضوعات مختلفة نذكر من بينها:

رسالة في تحريم الغناء والسماع لأبي بكر الطرطوشي/ تحقيق عبد المجيد التركي.

رسالة في تحريم الجبن الرومي لأبي بكر الطرطوشي/ تحقيق عبد المجيد التركي.

«إثبات ما لا بد منه لمريد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد» لأبي العباس أحمد العزفي (ت ٦٣٣هـ). مخطوط مغربي جيد، توجد نسخة شمسية منه عند الأستاذ محمد الشريف بكلية الآداب بتطوان، سلمها له المرحوم العلامة محمد المنوني، ويتألف المخطوط من ١٣٧ ورقة من الحجم المتوسط.

مقالة في الأوزان لعلي بن محمد بن القطان الفاسي (ت ٦٢٨هـ).

(١) راجع التعريف بالكتاب ضد الفقيه بو خيزة التطواني ضمن مسئلة تعريفى ببعض المخطوطات الأندلسية نسخة مصورة خاصة/ وراجع دراسة عن الكتاب للدكتور حسن الوراكلي «إشارات اجتماعية واقتصادية عن مدينة ألمرية» من خلال مصدر فقهي/ مجلة أبحاث أندلسية نونبر ١٩٩٠، وكذلك مجلة الملتقى الإسباني المغربي الثاني للعلوم التاريخية، غرناطة ٦-١٠ نونبر ١٩٨٦.

(٢) راجع عن موضوع البدع والحوادث بالأندلس، حسن الوراكلي، «ياقوتة الأندلس» دراسة في التراث الأندلسي، ص ١٥٩-١٨٠. دار الغرب الإسلامي ١٩٩٤.

تلخيص القول في المكايل والأوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها، من أقوال العلماء المعتمدين بتحقيق ذلك، لمؤلف مجهول كتبها سنة ٦٨٥ هـ، مخطوط الزاوية الناصرية بتمكروت ضمن مجموعة رقمه ق ٤١٦.

«الدوحة المشتركة في ضوابط دور السكة»، لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم، نشره الدكتور حسين مؤنس في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلد ٦ سنة ١٩٨٥ من صفحة ٦١ إلى صفحة ٢٠٤.

«أسنى المتاجر فيمن غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج» لأبي العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني (ت ٩١٤ هـ) وهي الفتوى المشهورة في شأن من بقي من المسلمين ببلاد الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ، وقد ناقش العلماء هذه الفتوى القاصمة فردوا عليها ردوداً ضافية، وكان أول من نشرها هو الدكتور حسين مؤنس في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧.

وقد بز المغاربة أقرانهم من الأندلسيين في هذا النوع من التأليف، وقد وقفت على رسائل كثيرة في هذا الباب، أذكر بعضها مثل «جواب أبي حفص الفاسي السلطان حول الاستعانة بالكفار في أمور الجهاد»، ورسالة «صرف الهمة إلى تحقيق معنى الذمة» للمسنوي، ورسالة في الحسبة لأبي سعيد المزكلاوي، ورسالة في «الإمامة العظمى» لأبي سعود الفاسي، ورسالة «القول الكاشف في حكم الاستنابة في الوظائف» للمسنوي، و«تقييد الموازين والمكوس» لأبي زيد الفاسي، وجواب حول «مسألة العقوبة بالمال» لمحمد بن العربي أبي المحاسن الفاسي، و«رفع الالتباس في مسألة الخماس» لابن رحال المعداني، و«تحفة الإخوان في فوات بيع الثنيا بطول الزمان» لمحمد التاودي بن سودة، و«الفتح المبين في بيان الزكاة وبيت مال المسلمين» لجماعة من علماء فاس لسيد محمد بن عبد الله في شأن الموازين. و«تحفة القضاة ببعض مسائل الرعاية» لأحمد البويقوبي، ورسالة في «تضمين الصانع» لابن رحال، وغيرها كثير شاهد على المواضيع الملحة التي شغلت بال الفقهاء فخصوها بالتأليف والتحليل<sup>(١)</sup>.

والتأليف من هذا القبيل كثيرة، وحسبي أنني مثلت لهذا المنهج ببعضها، فأتضح أن المفتي كان دائماً يرعى بعينه الحالات المستعصية والوقائع الملحة، التي غالباً ما لا يحسم فيها الخلاف بفتاوى عرضية متفرقة هنا وهناك، وإنما تفرض أن تخص بتأليف مستقل شاق ومفصل يعزز فيه الفقيه رأيه بالأقوال المعتمدة في المذهب، ويعمل نظره في ربطها بالوقائع المتجدد والعرف المعتمد.

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب فقه النوازل في سوس قضايا وأعلام للدكتور الحسن العبادي ص ٤٦، منشورات كلية الشريعة أكادير ١٩٩٩.

## ٣- التأليف بحسب الأشخاص الأعلام:

هذا الصنف من كتب النوازل جمع أجوبة فقيه واحد، وقد يكون ذلك من جمعه هو أو من جمع تلاميذه الأصحاب، إما إملأ منه أو جمعاً عنه خلال توليه مهمة الإفتاء أو الشورى، وقد كان يحدث أن توجه لبعض الفقهاء لمكانتهم وشهرتهم أسئلة معينة ومحددة فيجيبون عنها، فيشتهر الجواب بشهرة المفتي.

وهذه هي السمة الغالبة على كتب النوازل، فغالباً ما تنسب لصاحبها ويتداولها الناس معزوة لأصحابها.

وقد قمت باستقراء كتب الفهارس فعثرت على كم وافر من كتب النوازل من هذا الصنف، ووجدت إشارات كثيرة إلى أسماء كثير من الفتاوى، وفي مرحلة الاستخراج والوقوف عليها مخطوطة أو مطبوعة وجدت القدر اليسير مما حفظته أيادي الزمن، وعز عليّ الحصول على الكثير منها، فاستنتجت أن قسماً كبيراً من هذا النوع من تراثنا التليد قد تعرض للضياع والتلف لضباب هذا الجزء الغالي من بلاد الإسلام، فيبقى أن قدراً كبيراً من هذه المؤلفات مذكور في بطون مدونات النوازل كأحكام ابن سهل، ومعيار الونشريسي، وجامع البرزلي وغيرها التي نجد من بين نقولها المعتمدة فتاوى لأعلام أندلسيين، لكننا لا نجد لها أثراً ولا وجوداً ضمن الأرشيفات والخزائن حسب ما أوصلني إليه بحثي وجهدي.

ولقد ذكر الدكتور محمد حجي نماذج من هذه الفتاوى الضائعة الغائرة والتي ما تزال تحتاج إلى جهد الباحثين وتنقيب المختصين - في مقال له حول المجتمع الأندلسي من خلال كتب النوازل<sup>(١)</sup> - بعضاً من هذه الفتاوى المشهورة شهرة أصحابها، أمثال فتاوى أصبغ بن خليل (ت ٢٩٣هـ)، وفتاوى المشاور بن لبابة (ت ٣٣٠هـ)، وفتاوى أصبغ بن الفرج (ت ٣٩٩هـ)، وفتاوى عبد الله بن دحون (ت ٤٣١هـ)، وفتاوى أبي الحسن علي حدة (ت ٧٤٦هـ)، وفتاوى محمد بن علاق (ت ٨٠٦هـ)، وفتاوى محمد بن علي الحضار (ت ٨١٠هـ).

لقد كانت الإشارات من الأستاذ حجي دافعاً لي للبحث عن أماكن وجود هذه الفتاوى، لكنني لم أظفر بطلبتي وأنا أتصفح فهارس الخزائن وكتب الفهارس ومعاجم المؤلفات، فترجح لدي أن نسبة هذه الفتاوى لأصحابها آت من كثرة تردد فتاويهم في مدونات النوازل اللاحقة لعصورهم والتي يكثر فيها النقل عنهم، وزاد من هذا الترجيح أن الدكتور حجي فرق بينها وبين الفتاوى المعروفة بذكر أسماء المؤلفات من وضع أصحابها واصطلاحهم. ففي نفس المقال وفي معرض سرده لهذه الفتاوى يقول: ونوازل القاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل (ت ٤٨٦هـ) المسماة «الإعلام بنوازل الأحكام أو الأحكام الكبرى»، ونوازل القاضي

(١) محمد حجي: جولات تاريخية ص ٢٣. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٥ بيروت.

المشاور بن الحاج (ت ٥٢٩ هـ) المسماة «الفصول المقتضية في الأحكام المنتخبة»، ونوازل أبي الوليد بن هشام (ت ٦٠٦ هـ) وتسمى «المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام»... وهكذا.

ولعل هذه الإشارة تستنهض همم الباحثين لجمع فتاوى هؤلاء الأعلام من بطون المدونات والمجاميع وتخصيصها بالدراسة والتحقيق والتحليل، فالأمر فيه كبير الفائدة ولا شك.

ومن نماذج التأليف في هذا الصنف ما يلي:

أ- فتاوى ابن رشد الجد (ت ٥٢٠ هـ) جمعها تلميذه أبو الحسن محمد بن الوزان القرطبي، وهي من أشهر الفتاوى الأندلسية نظراً لمكانة صاحبها، فقد كان مفتي قرطبة وقاضي الجماعة بها، انتهت إليه رئاسة الفقه في زمانه، فحلّق حوله التلاميذ من كل قطر، وطاروا إليه بالمسائل من كل أنحاء الأندلس ومن عدوة المغرب.

وقد تم تحقيق الكتاب مرتين على التوالي، بتونس على يد الباحث المختار التليلي وقد سماها فتاوى ابن رشد، وقد كان حققها قبله الدكتور الحبيب التجكاني وسماها مسائل أبي الوليد.

والكتاب سجل فصولاً متنوعة من حياة الأندلسيين في شتى مجالات الحياة وكل شؤون الدين بصفة عامة.

وفي إشارة للدكتور حجي حول فتاوى ابن رشد أشار إلى أن تلميذه ابن الوزان لم يجمع كل الفتاوى الصادرة عن ابن رشد، وأنه أغفل عدداً كبيراً منها، والذي يزكي ذلك وجود كثير من فتاويه مبثوثة في مصنفات فقهية متأخرة تتبع أثرها الباحث التونسي.

يقول محمد الحجي: «وهناك أيضاً كتاب آخر في النوازل منسوباً إلى أبي الوليد بن رشد يوجد مخطوطاً في الخزانة العامة بالرباط، يقول ابن رشد في مقدمته: «وبعد، حمداً لله تعالى والصلاة على رسوله المصطفى، فإني بجميل صنع الله بي، وجزيل أفضاله عندي، وحسن عونه لي، أيام نظري في القضاء والأحكام، وزمن تقيدي أحكام غيري من القضاة والحكام، جرت على يدي نوازل استطلعت فيها رأس من أدركت من الشيوخ والعلماء، وانفصلت لدي مسائل نوازل كشف عنها كبار الفقهاء، إذ كانوا من أهل هذا الشأن بأرفع مكان، وأعلى منزلة، وأعظم درجة رسوخاً وعلماً ودربة وفهماً، منها ما شافتهم فيه، ومنها ما كلمتهم في معانيه، وكنت قد علقت ذلك على حسب وقوعه، لا على ترتيبه وتنويعه لاتذكر به متى احتجت...».

يدل هذا التقديم على أن ابن رشد كان قد بدأ بجمع الفتاوى التي استدعاها هو من معاصريه الفقهاء حين كان مشاوراً - بالكسر - قاضياً بقرطبة (من عام ٥١١ هـ إلى عام ٥١٥ هـ) لكن انشغاله بإنهاء كتابيه: «البيان والتحصيل» و«المقدمات والممهدات» ووفاته بالقرب من

ذلك، جعله لا يستوعب كل الفتاوى والأحكام، ورأى تلميذه ابن الوزان أن ينتقي جملة من فتاوى الشيخ، وبذلك يكون لابن رشد كتابان في النوازل، الأول المشهور وهو بقلم ابن رشد من جمع تلميذه ابن الوزان، وتكون النوازل الثانية بأقلام فقهاء مشاورين آخرين جمعها ابن رشد نفسه، ولذلك ما يعززه من كتب التراجم التي نسبت لابن رشد كتابين في النوازل، الأول باسم الفتاوى، والثاني باسم المسائل، ومعلوم أن للاسمين مدلولاً واحداً<sup>(١)</sup>

ب- فتاوى القاضي عياض وولده محمد المسماة بـ «مذهب الحكام في نوازل الأحكام» وأصله فتاوى تضمنتها جذاذات وبطاقات للقاضي عياض السبتي، جمعها بعد وفاته ابنه القاضي أبو عبد الله محمد.

والكتاب جمع نوازل متعددة في خمسين باباً من أبواب الفقه، استفتى عياض في بعضها شيوخ المذهب في زمانه، وفي مقدمتهم ابن الحاج التجيبي وابن رشد الجد، وأفتى في غالبها وهو الذي تقلد القضاء والإفتاء بسبته والأندلس، وهو الفقيه الحاذق الذي خلف آثاراً فقهية كثيرة، ما هذه النوازل إلا جزءاً منها.

ولم يكن ابنه المكمل لهذه النوازل دون مستوى أبيه في العلم بالأحكام وطرق تخريجها، ولذلك كثيراً ما وجدناه يضيف ويعلق ويستدرك على أبيه، فتكثر في الكتاب عبارة قال محمد، والمقصود بها رأيه الخاص وتعليقاته الاجتهادية.

وقد أورد الدكتور محمد بن شريفة محقق الكتاب نموذجاً لذلك، وهو يتحدث عن استقلالية ولد عياض في الفهم والنظر ساقه من هذه النوازل في نازلة موضوعها: الخلع.

«سئل أبي - رضي الله عنه - في مجلس قضائه بمحضر جملة من فقهاء البلد وأهل الفتوى بها عن رجل خالع زوجته على أن آخرته بكالها بعد حلوله إلى ستة أشهر، فسكت - رضي الله عنه - عن الجواب، فقال أحد الحاضرين: هذا مما لا خفاء به، الخلع لازم وتأخير المال عنه لازم للزوجة، فأنكر أبي - رضي الله عنه - ذلك وقال: الخلع لازم وتعجيل المال له لازم».

ثم عقب على هذا بقوله:

«قال محمد بن عياض: المسألة منصوصة في المدونة ظاهرة بينة، ونصها: أرأيت إن خالعهما على أن أخرت الزوج بدين لها عليه إلى أجل من الآجال. قال: قال مالك: الخلع جائز، ولها أن تأخذه بالمال حالاً، ولا مرية أن الكالى دين من الديون»<sup>(٢)</sup>.

ج - تقريب الأمل البعيد في نوازل أبي سعيد:

وهو شيخ الإفتاء بغرناطة أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي من أهل

(١) محمد حجي: المجتمع الأندلسي من خلال كتب النوازل، كتاب جولات تاريخية (٢٣/١).

(٢) مذاهب الحكام، تحقيق محمد بن شريفة ص ٢٢.



غرناطة، يكنى أبا سعيد، مولده سنة ٧٠١هـ ت ٧٨٢هـ. وتوجد هذه الفتاوى مجموعة غير مخطوطة بغيرها في ثلاث نسخ حسب علمي، اثنتان مجهولتا النسخ، والثالثة توجد ضمن مجموع ابن طركاظ العكي الذي جعله خاصاً بفتاوى الغرناطيين، وكان نصيب ابن لب منها الأوفر والأوفى. وأما «تقريب الأمل البعيد» فهي نسخة مطولة بلغت ٢٣٥ صفحة، وقد نسختها من دير الإسكوريال وتحمل رقم ١٠٩٦.

والثانية تحمل اسم نوازل ابن لب أشار الفقيه بوخيزة في تعريفه بهذه النوازل أنه وقف على نسخة منها بمكتبة الحرم المدني بالمدينة المنورة في رمضان من عام ١٤١٢هـ في مجلد ضخم يزيد على ما جمع ابن طركاظ بأربعة أضعاف أو أكثر من تحييس أحد الوزراء. ويشير أحد الباحثين إلى نفس المعلومة، وذكر أنها محفوظة بمكتبة الحرم المدني رقم ٢١٧/٢/١٢١<sup>(١)</sup>. وكل هاته النسخ جمعت فتاوى ابن لب في غير ما ترتيب، فشملت مواضيع متنوعة وأسئلة مختلفة وردت على الرجل فأفتى فيها، ودونت عنه فاشتهرت باسمه، واعتمدها المفتون والجامعون بعده، فنجد صدى فتاويه عند الونشريسي والبرزلي والعلمي والزياتي والوزاني وغيرهم.

د - أجوبة ابن ورد التميمي (ت ٥٤٠هـ).

وقد شملت مواضيع متنوعة سئل عنها الفقيه الحافظ القاضي أبو القاسم أحمد بن محمد التميمي الشهير بابن ورد، المتوفى سنة (٥٤٠هـ) وُجهت إليه من جزيرة ميورقة الأندلسية قال في أولها: «أما بعد، حمداً لله عز وجل والصلاة على نبيه المصطفى أفضل الرسل، فإن السؤالات المتضمنة بهذا الكتاب وردت علي من جزيرة ميورقة جبرها الله من قبل بعض أهل العلم المهتمين بنوازل، الراغبين في فوائده وقرهم الله، فتوقفت عنها زماناً إذا لم تحضرني بها نية، ولا وجدت لها مكاناً لما أنا بسبيله من الانكباب على تواليف أعان الله عليها ونفع بها منه وفضله ثم بعد لأي ثابت لي نية إليها، فاعتزمت عليها، وسلكت في الأجوبة مسلكاً وسطاً لا مفرطاً ولا مفرطاً يرتقي عن الجوابات المقتضبة، وينحط عن الشروحات المستوعبة»<sup>(٢)</sup>. وقد بلغ مجموع هذه المسائل ثلاثاً وتسعين مسألة في قضايا مختلفة انتقلت من العبادات إلى المعاملات والآداب والمناقب وغيرها.

هـ - نوازل ابن بشتغير (ت ٥١٦هـ):

وهي نوازل اشتهرت أيضاً منسوبة إلى صاحبها الفقيه القاضي الوزير النزيل أبو العباس أحمد بن سعيد بن بشتغير اللورقي الأندلسي، وقد أشرت إلى مظان وجودها في فصل

(١) محمد الحبيب الهيلة: متاحف كتب النوازل الأندلسية والمغربية من منتصف القرن ١١/٥ إلى نهاية ١٥/٩. مجلة أبحاث أندلسية، العدد ٩-١٩٩٣.

(٢) أجوبة ابن ورد، مخطوط خاص، ص ١.

المؤلفات.

واللافت للنظر هو قلة الناقلين عنها، بل ويكاد اسم ابن بشتغير يغيب عن مدونات النوازل اللاحقة رغم جودتها وطول باع صاحبها، وبالرغم من أنها جمعت أجوبة مهمة من مختلف حواضر الأندلس والمغرب رفعت إليه، فأبدى فيها نظره وأجاب عنها وفق مقررات الفقه المالكي، وقد جاءت هذه الأجوبة مبوبة تضمنت موضوعات فقهية من قبيل مسائل الإقرار والإيمان، والرهن والضمان، ومسائل من الشفعة والقسمة والضرر والبيان، ومسائل من الحيابة، ونوازل الوصايا والعق، وقضايا الدماء والحدود، وتضمنين الصناعات والبيع، ومسائل من الأتكة والطلاق والإحداد واللعان، ومسائل الأكرية والإجارات والمزارعة، ومواضيع أخرى مختلفة جامعة.

#### ٤- التأليف المتنوع المختلط:

وأقصد بهذا الصنف من التأليف تلك الدواوين النوازلية التي جنح فيها أصحابها إلى تسجيل أجوبتهم على الأقضية والمسائل، من دون أن يخضعوها للترتيب المعتمد في كتب الفقه، فجاءت مختلطة غير مبوبة، فتجد نفسك وأنت تطالع هذا النوع من النوازل تنتقل من موضوع إلى آخر مما كان من أحوال المجتمع، وهو ما يجعلك أمام مرآة حقيقية عن واقع تلك الفترة وملابساتها وظروف أهلها وعوائدهم، وهو ما يضيف طابع التشويق عليها، ويجعل القارى يخرج عن رتابة التأليف النظري الذي دأبت عليه كتب الفقه.

وفي اعتقادي يعود عدم ترتيبها وتبويبها إلى تشعبها وغزارة مادتها، وغالباً ما كان الفقيه المفتي يكتفي بإيراد الجواب المناسب، ولم يكن يجد من سعة الوقت ما يجعله يهتم لترتيبها وتبويبها لانصرافه عن ذلك إلى الأهم، فيقوم أحد التلاميذ، في حياته أو بعد موته، إلى جمعها والنقاطها من حواظ التلاميذ والمعاصرين<sup>(١)</sup>

وأذكر من نماذج هذا الصنف ما يلي:

\* فتاوى ابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ) توجد المسائل فيها على غير ترتيب، وقد جمعها تلميذه أبو الحسن محمد الوزان، وبقيت كذلك شاهدة على تنوع القضايا والمشكلات التي كان ابن رشد يستشير فيها كبار فقهاء عصره، ويفتي في بعضها برأيه واجتهاده.

وقد أحسن المحققان المختار التليلى والحبيب التيجكاني حينما جعلاهما فهرس لهذا الديوان سجلاً فيها رؤوس المسائل وعناوينها.

(١) إن الحاجة تبدو ماسة للنظر في هذه النوازل بهدف ترتيبها وتصنيفها، حتى تنتظم فصولها ومواردها تسهياً لأمر الاستفادة منها، فالباحث يتيه في بحر هذه الأجوبة بحثاً عن رأي أو قول أو جزئية فيطول الجهد ويضيع الوقت، وإنها لعمري من الأمور الملحة التي ينبغي أن تنصب حولها جهود الباحثين والمهتمين.

- \* مسائل أبي سعيد بن لب الغرناطي في نسخها المشار إليها آنفاً، وكذلك تقريب الأمل البعيد في نوازل أبي سعيد، فقد جاءت كذلك على غير ترتيب.
- \* كتاب الحديقة المستقلة النضرة في الفتاوى الصادرة عن علماء الحضرة، جمعت فتاوى مختلفة ومتنوعة لفقهاء غرناطة في المائة الثامنة وبعدها.
- \* مجموع فتاوى فقهاء غرناطة لابن طركاظ العكي (ت بعد ٨٥٤ هـ) على قضاء المرية.
- \* أجوبة ابن ورد التميمي.

وقد سبقت هذه النماذج للتمثيل فقط، وإلا فإنها هي السمة الغالبة في النوازل الأندلسية للأسباب التي ذكرت.

وكأني بأصحاب هذا الصنف من التأليف والتدوين أرادوا أن يجعلوا ذلك سجلاً جامعاً للأقضية والمسائل وآراء الفقهاء وفتاويهم بشأنها، ومن ثمّ فهي لا تنضبط لقواعد التأليف والكتابة، فهي أقرب إلى التدوين منها إلى التأليف.

ولا ينبغي أن ننسى حداثة التأليف في هذا المجال، وأنه كان في الدرجة الثانية من اهتمام الفقهاء إن صح هذا التعبير، ذلك أننا وجدنا كبار فقهاء المالكية بالأندلس ينصرفون إلى الدرس الفقهي تأليفاً وشرحاً واختصاراً وتعليقاً، وكانت تستصدر منهم الفتاوى عرضاً، فلم يخصصوها بالتأليف، وإنما بقيت تداول من طريق السند، وسجلتها كتب الفهارس والبرامج، وهكذا سمعنا بفتاوى أصبغ بن الخليل (ت ٢٩٣ هـ)، وفتاوى محمد بن لبابة (ت ٣٣٠ هـ)، وفتاوى أصبغ بن الفرج (ت ٣٩٩ هـ) وغيرهم كثير.

وغالباً ما يعمد جامعو هذه النوازل من التلاميذ أو المعاصرين إلى ذكر اسم الفقيه المفتي ثم يستعرض كل فتاويه وأجوبته ولا يعمد إلى ترتيبها.

##### ٥- التأليف المتنوع المصنف:

وقد وجدت قسماً آخر من كتب النوازل صدرت على شاكلة كتب الفقه من حيث ترتيب الأبواب والفصول، وهذا النوع غالباً ما تم تصنيفه بعد الانتهاء من تقييده؛ إما على يد مؤلفه، أو على يد أحد تلامذته، لأن طبيعة هذه المادة لا تقبل التصنيف بدءاً إذا علمنا أن إرسال الفتاوى يكون بحسب الحاجة الملحة والواقع المتجدد، ولكل يوم قضاياها، وموضوعاته، فغالباً ما يتم الاحتفاظ بتلك الفتاوى في بطاقات وجذاذات ليتم ترتيبها وتدوينها بحسب المحور الجامع بينها ضمن الباب الناظم لها.

وينبغي الإشارة إلى أنني وجدت بعضاً من هذه المؤلفات مرتباً على حسب الترتيب المعهود في كتب الفقه مبتدأ بكتاب الطهارة فالزكاة فالصيام فالحج... وهكذا. ووجدت البعض الآخر فيه المادة النوازلية ضمن أبوابها الجامعة لها، ولكنها جاءت في وضعها على غير التوبيع المعهود.

فمن ذلك تصنيف القاضي عياض للمذاهب، عمد فيه إلى جمع المسائل ضمن كتب،

جعل مثلاً كتاب الصلاة الذي حقه أن يقدم عند آخر الكتاب، ومبتدأ بكتاب الأقضية، وهكذا. وجاء ترتيب المواضيع عند ابن الحاج في الفصول المقتضية على الشكل التالي: قضايا الزواج والصداق - مسألة البيوع والشركة - الوصايا والحضانة والطلاق - مسائل الإضرار بالجار - مسائل المياه - مسائل الأقضية - مسائل الشفعة - القراض - وأخيراً مسائل تتعلق بالعقيدة ومحاربة أهل البدع.

وقد رتبها عبد الرحمن بن محمد القيسي من أهل ألمرية (ت ٧٣٧هـ)<sup>(١)</sup>

وقد عرف هذا النوع من التأليف ارتقاء وتطوراً بعد أن استوى هذا العلم على سوقه واستقر، فقد وجدت الفقهاء المتأخرين من أمثال البرزلي والونشريسي وغيرهم من المغاربة من أمثال العلمي الشفشاوني والزياتي والوزاني بيرعون في عرض فتاوى السابقين وتسجيل فصولها، فجمعوا بين الفقه النظري المعتمد على أصول المذهب وقواعده وتبويباته، وأضافوا إليه ما جمعه من فتاوى ونوازل في الباب المدروس.

فهذا أبو القاسم البرزلي مثلاً يبتدى في بداية كل باب فقهي ببعض التحديات الفقهية النظرية، ثم لا يطيل في ذلك ليعود إلى ما جمعه من نوازل تندرج في الباب، فيقول مثلاً: «وفيما ذكرناه كفاية فنرجع إلى ما رسمناه من النوازل فمنها...»<sup>(٢)</sup> وأذكر من نماذج هذا التصنيف ما يلي:

«الإعلام بنوازل الأحكام» لابن سهل الأسدي (ت ٤٨٦هـ).

نوازل ابن الحاج التجيبي الشهيد (ت ٥٢٩هـ) والمسماة: «الفصول المقتضية في الأحكام المنتخبة».

«المعيار المعرب والبيان المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب» لأبي يحيى الونشريسي (ت ٩١٦هـ).

«مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام» للقاظمي عياض وولده محمد.

«المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام» لأبي الوليد هشام بن عبد الله القرطبي (ت ٦٠٦هـ).

نوازل أبي المطرف الشعبي المالقي (ت ٤٩٧هـ).

## ٦ - الاشتغال بالاختصار والترتيب:

ونظراً لضخامة مادة بعض كتب النوازل وقيمتها المعرفية وغزارة فوائدها، بالإضافة إلى مكانة أصحابها ورتبهم العلمية، فإنه وجد من الفقهاء من لجؤوا إلى اختصارها وترتيبها تقريباً للفائدة وتسهيلاً للانتفاع بها، وهكذا نقف في ثانياً بعض كتب التراجم والفهارس على إشارات

(١) راجع ترجمته في نيل الابتهاج ص ٢٤٤ رقم ٢٨٨. ودره الحجال رقم الترجمة ٩٩٢.

(٢) أحكام البرزلي، بداية كتاب الإيمان، مخطوط الخزائن العامة رقم ٤٥٠٠.

إلى هذه المختصرات، فقد ذكر صاحب نيل الابتهاج في ترجمته لعبد الرحمن القيسي الأندلسي من أهل ألمرية (ت ٧٣٧هـ) أنه رتب واختصر نوازل ابن رشد، ونوازل ابن الحاج<sup>(١)</sup>. وممن رتب نوازل ابن رشد الفقيه محمد بن سعيد بن محمد بن عثمان الرعيني الأندلسي (ت ٧٧٩هـ)<sup>(٢)</sup>.

وقام أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع التونسي (ت ٧٤٣هـ) باختصار نوازل ابن رشد<sup>(٣)</sup>. وكذلك فعل أبو عبد الله محمد بن هارون الكثاني التونسي (ت ٧٥٠هـ)<sup>(٤)</sup>. وتحتضن مكتبة الزاوية الحمزية بتافيلالت مختصراً قيماً لأحكام ابن سهل، سماه صاحبه أبو عمران موسى بن أبي علي الزناتي «اقتضاب السهل من اختصار ابن سهل»<sup>(٥)</sup>. واختصره كذلك يحيى بن عمر القرطبي (ت ٥٦٧هـ)، وتوجد منه نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس ٩٤٤٨-أوراقها ٩٦<sup>(٦)</sup>.

وذكر ابن الخطيب في الإحاطة، وابن فرحون في الديباج حين ترجمتهما لابن منخل، أبي محمد عبد الله بن أحمد الغافقي الغرناطي (ت ٧٣١هـ) أنه رتب نوازل أبي عبد الله بن الحاج في مجموع سماه «المنهاج في ترتيب مسائل أبي عبد الله بن الحاج»<sup>(٧)</sup>. ويوجد في الخزانة العامة مختصر أحكام البرزلي «في نحو ٣٣٨ صفحة لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار»<sup>(٨)</sup>، واختصره كذلك أحمد حلولو القيرواني والبوسعيد البجائي<sup>(٩)</sup>. وقام من المغاربة الفقيه إبراهيم بن هلال الصنهاجي السجلماسي (ت ٩٠٣هـ) صاحب النوازل المشهورة بنوازل ابن هلال، بترتيب نوازل أبي الحسن الصغير الزرويلي (ت ٧١٩هـ) على التيوب المتعارف في المؤلفات الفقهية، بعد أن كانت على غير ذلك، وعنونها بـ «الدر النير على أجوبة أبي الحسن الصغير»، وقد نشر بالمطبعة الحجرية الفاسية عام ١٣١٩هـ. وقد كانت نوازل إبراهيم بن هلال السجلماسي غير مرتبة، حتى رتبها تلميذه أبو القاسم بن أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٠١هـ وجمعها علي بن أحمد بن محمد

(١) التنبكتي: نيل الابتهاج، ص ٢٤٤ رقم الترجمة ٢٨٨.

(٢) نيل الابتهاج ٤٥٨-٤٥٩. رقم ٥٦٩.

(٣) راجع مقدمة تحقيق معين الحكام (١٠٤/١).

(٤) لقد قامت الباحثة فاطمة الدعداع بتحقيق هذا المختصر في نطاق دكتوراه في الفقه والسياسة الشرعية بجامعة الزيتونة بإشراف محمد الشاذلي النيفر سنة ١٩٨٦.

(٥) مكتبة الزاوية الحمزية تافيلالت رقمها ٣٢٥، وراجع مقال أبي الأجفان: الفتاوى الأندلسية. وتقوية تحقيق فتاوى ابن رشد أعمال منشورات كلية الآداب تطوان ١٩٩١، التراث الأندلسي التوثيق والقراءة.

(٦) أبو الأجفان، المقال السابق.

(٧) انظر الإحاطة (٤١١/٣)، والديباج (٤٤٤/١).

(٨) مخطوط الخزانة العامة رقم ٥٢١٩٨، ضمن مجموع.

(٩) انظر شجرة النور، ص ٢٤٥، فتاوى ابن سراج ص ٥٠. تحقيق محمد أبي الأجفان.

الجزولي الحيايني الرسموكي المتوفى سنة ١٠٤٩هـ.

وقد اقتصر على ذكر بعض هذه المختصرات والترتيبات، ولا يزال الكثير منها غائراً في بطون الأرشيفات مما تصادفه وأنت تجول بين ثناياها، وهو ما يزكي ما أشرت إليه سابقاً من أن الاشتغال بالترتيب والاختصار والتعليق كان منهجاً قائماً له أهله ورجاله، خصوصاً به أجود المؤلفات وأفيدها لشهرة أصحابها، ولكثرة المعتمدين عليها والناقلين عنها.

## ٧- التأليف المقصود للمناظرة والمراجعة:

وهذا الصنف من التأليف سجل لنا صوراً من التكامل العلمي بين علماء الغرب الإسلامي عموماً من القيروان إلى الأندلس، ومنها إلى عدوة المغرب في مختلف العصور. لقد وجدنا في ثنايا كتب النوازل تقاييد ورسائل تضمنت سجلات ومراجعات بين الفقهاء على اختلاف مواقعهم الجغرافية، فقد كانت الفتوى تعرف توحداً وتكاملاً، مخترقة الحدود الجغرافية، ويرجع الفضل في ذلك إلى التلاميذ الذين غالباً ما كانوا ينتقلون بين المفتين لاستصدار واستطلاع مواقف العلماء من القضايا المطروحة، بحثاً عن الحلول وحسماً للخلاف في أمور كثيرة كان بين الفقهاء خلاف بشأنها، بين مجيز ومانع ومتشدد وميسر.

وقد سجلت لنا بعض كتب النوازل نماذج من الأقضية التي كان يستفتى فيها من طريق المراسلة بين الأندلسيين والمغاربة والقيروانيين.

وكثيراً ما كانت تطول هذه الأسئلة والأجوبة فتشكل تأليفاً خاصاً مستقلاً. ومما وقفت عليه في هذا الباب:

كتاب أبي عبد الله محمد الرصاع التونسي (ت ٨٩٤هـ) سماه: «الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية» وردت عليه من شيخ غرناطة أبي عبد الله محمد المواق (ت ٨٩٧هـ)<sup>(١)</sup>.

وسجل كتاب جامع مسائل الأحكام للبرزلي نماذج من هذه الأسئلة نقلها عن مختصر شيخه ابن عرفة الورغمي، وفيها مرافعات ومراجعات فقهية بينه وبين معاصريه من فقهاء غرناطة خلال القرن الثامن، أمثال ابن لب والمواق والشاطبي وغيرهم.

وكذلك فعل الونشريسي في المعيار، فنقل كثيراً من هذه الأسئلة والأجوبة في مواضع متعددة.

إن الوحدة السياسية بين هذه البلدان، استتبع وحدة الإفتاء ونشاط المراسلات والمناظرات بين الفقهاء منذ زمن مبكر من تاريخ الغرب الإسلامي، فوجدنا أحكام ابن سهل وفصول ابن الحاج، ومسائل أبي الوليد، ومذاهب عياض، وغيرها تملئ بالأسئلة الضاربة في المسافة. واستمر ذلك ونشط مع مملكة غرناطة مع ظهور مشاكل البدع والحوادث

(١) قدم لها ودرسها الأستاذ سعد غراب في مقال بعنوان «مسائل أندلسية إفريقية من القرنين ٨ و٩هـ/ ١٥١٤م» مجلة دراسة أندلسية عدد ١/ ١٩٨٨، ص ٧.

والارتداد وحملات النصارى وسقوط البلاد الإسلامية، وما يفرضه ذلك من مناقشات وآراء، وجدنا الفقهاء يفرّدونها بالكتابة والتأليف والتنظير.

وقد قام الأستاذ محمد بن شريفة بدراسة لشرح تحفة ابن عاصم لابن عاصم الابن واستخراج نوازل قيّمة منها عن مجتمع غرناطة قبيل السقوط، منبهاً إلى ما تختزنه من مراجعات فقهية بين علماء الأندلس فيما بينهم وبين فقهاء فاس وتلمسان والقيروان وغيرها. يقول: «ويقدم لنا شرح أبي يحيى أمثلة متعددة من المراجعات بين قضاة غرناطة ومالقة والميرية، فمن ذلك مراجعة طويلة بين قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن بكر وأبي البركات ابن الحاج قاضي مالقة في شأن خصومة وقعت بمالقة يومئذ، وتدخل فيها الوزير الحاجب رضوان النصري، ويتجلى في هذه المرافعات علو كعب القاضيين المذكورين في الفقه والأدب.

والواقع أن المراجعات الفقهية لم تكن بين فقهاء مملكة غرناطة فحسب وإنما كانت بينهم وبين فقهاء فاس وتونس وتلمسان أيضاً، وهذا شيء يدل على التواصل الكبير بين فقهاء الغرب الإسلامي يومئذ، وهو يبدو بوضوح في كتاب «المعيار».

ومما نجده في شرح ابن عاصم من هذه المناظرات والمراجعات: الأسئلة التي وجهها أبو الحسن علي بن سمعة شيخ أبي يحيى إلى تونس وقد أجابه عنها الأمير أبو عبد الله محمد بن الحسن بن السلطان أبي العباس الحفصي تلميذ ابن عرفة، والمراجعات التي جرت بين فقهاء تونس وابن سراج عندما كان في صحبة ملكه المخلوع محمد التاسع، ومنها كذلك المراجعات المتعددة بين الإمام الشاطبي وأبي العباس أحمد القباب الفاسي.

ومن مظاهر التواصل بين بلاد المغرب والأندلس يومئذ أيضاً ما نجده في الشرح من أن أهل تلمسان يطلبون الفتوى من غرناطة، وأهل هذه الحضرة يطلبون الفتوى من فاس، وفي ذلك ما يدل على وحدة الإفتاء بين البلدان المذكورة»<sup>(١)</sup>

وغالباً ما كانت مواضيع هذه المراجعات لها علاقة بتجدد الحياة الدينية في المجتمع الأندلسي، فظهرت ممارسات دينية اعتبرها بعض الفقهاء من البدع الضالة والسلوكات المنتحلة، فاشتد حولها الخلاف، بل وخصت بتأليف خاصة.

ففي مسألة الدعاء عقب الصلاة والتي وقع حولها خلاف بين طلبة غرناطة، وبلغ هذا الخلاف الشيخ أبا سعيد بن لب الغرناطي، فألف رسالة يقر فيها هذا الدعاء سماها «لسان الأذكار والدعوات فيما شرع في أدبار الصلوات»<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد بن شريفة: نوازل غرناطة لابن عاصم الابن، التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب، غرناطة ٢١-٢٣ أبريل ١٩٩٢، مطبوعات أكاديمية المملكة.

(٢) راجع المعيار (٦/٢٥٨).

وعارضه أبو إسحاق الشاطبي مناقشاً المسألة في كتابه الاعتصام<sup>(١)</sup>. وذكر صاحب نيل الابتهاج أن لأبي يحيى محمد بن عاصم جزءاً في الانتصار لشيخه الإمام الشاطبي، والرد على شيخه الإمام أبي سعيد بن لب في الدعاء بعد الصلاة في غاية النبل والجودة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تمتلئ كتب النوازل بأمور طرحت بحدة فكانت مدخلاً للتأليف التناظري جمعته تقاييد أو رسائل قد تقصر أو تطول مذيبة بالأدلة والتوجيهات الفقهية اللازمة.

ونذكر من القضايا الأخرى المشهورة والتي اشتد النزاع بشأنها بين الفقهاء مسألة مراعاة الخلاف في الفتوى، ومسألة القراءة بالشاذ، ومسألة قراءة الحزب بالجامع، وعادات الأندلسيين في الأعياد... وغيرها. وقد أشار محمد حجي إلى كثير من المساجلات الفقهية بين فقهاء القرن ١٠ و ١١ بالمغرب الأقصى، أشهرها مسألة الدخان<sup>(٣)</sup>.

وقد سجل لنا هذا النوع من التأليف ما كان بين العلماء من أدب جم واعتراف متبادل بالمرتبة العلمية والإمامة والأفضلية، ولم يكن ذلك أبداً ليوقعهم في التفاخر والتعالي، مادام المقام مقام نصح وتوجيه وإرشاد لموطن الحق وموضع الصواب.

#### ٨- التأليف المقصود للتوجيه والتنظير:

وغالب هذا الصنف يطلق عليه كتب الأحكام، ذلك أن أصحابها لم يجعلوها أجوبة وفتاوى على أفضية الناس، وإنما ألفوها لأجل أن يرجع إليها من يشتغلون بالقضاء، ويتولون النظر في النزاعات الحادثة والطارئة، لتعصمهم من الوقوع في الزلل والخطأ، وقد جاءت هذه التأليف ناطقة بتجارب هؤلاء الفقهاء في ميدان القضاء، فقد ألفوها زمن نظرهم وتوليتهم القضاء الشوري، فخبروا مسالكه وألما بمشكلاته، فجمعوا مادته وسطروها في دواوين جامعة تركوها نبراساً ومناراً للحاقين، فجاءت جامعة بين تنوع نوازلها وأفضيتها وبين النظر الشرعي المناسب لها.

وأشهر مؤلف يندرج تحت هذا الصنف «كتاب الأحكام الكبرى لابن سهل الأسدي» فقد سجل فيه فصلاً متنوعاً من القضاء الشرعي في سائر مناحي الحياة بالأندلس، مزكاة بفتاوى العلماء، فاعتبر بحق موسوعة قضائية يستعين بها القضاة والحكام. وقد كان كذلك عند من جاء بعده، حيث كان عمدة الفقهاء والمفتين.

وأذكر من بينها كتاب «تنبيه الحكام» لابن المناصف، و«فصول الأحكام» للباجي، و«اعتماد الحكام» لابن زكون و«المفيد للحكام» لابن هشام الأزدي، و«العقد المنظم للحكام»

(١) راجع الاعتصام (٢/ ٢٧٤ و ٥٠٩).

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٨٥.

(٣) محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين (١/ ٢٤٠ - ٢٦٦).



لابن سلمون، و«تحفة الحكام» لابن عاصم وشروحها، و«معين الحكام» لابن عبد الرفيق التونسي... وغيرها.

إن الهدف والغرض من هذه المؤلفات هو أن تكون دليلاً للحكام يهتدون بها في أحكامهم، ويسترشدون بها في مجالسهم. وكأن أصحابها استشعروا خطورة المنصب وراعيهم هول المسؤولية وخطورتها، وما كان يظهر في المجتمع من حين لآخر، من خروج عن الجادة وزيف عن أداء الأمانة.

وغالباً ما كان يتم التنبيه في هذه الكتب إلى فقه القضاء، وما يلزم القضاة معرفته من الأحكام والآداب، وطرق الفصل في الخصومات، والشهادات والشهود وأحكامهم وأوصافهم وما شاكل ذلك مما يحتاج إليه الحكام.

وقد تحدث الدكتور عمر الجيدي عن هذا النوع من التأليف في كتابه «مباحث في المذهب المالكي بالمغرب» حيث عقد مبحثاً خاصاً لكتب الأحكام حيث يقول: «... يندر أن تجد فقيهاً نابهاً تولى القضاء، دون أن يترك وراءه كتاباً في الأحكام التي فصل فيها، وأجاب عنها، وغالباً ما كانت تأتي عناوين هذه الكتب متفقة في صياغتها، وكأنها موجهة أساساً إلى من يريد ممارسة مهنة القضاء، فلفظة الحكام لا يكاد يخلو منها عنوان أي كتاب مثل: المفيد للحكام، تنبيه الحكام، ناصر الحكام، معين الحكام، تحفة الحكام، مذاهب الحكام، مجالس الحكام، معتمد الحكام، وهكذا... فكأنهم كانوا يدونونها للقاضي بالقصد الأول، ويجب أن نفرق بين كتب الأحكام وكتب النوازل، فهذه جمعت بين فقه العبادات والمعاملات بخلاف الأولى، فإنها تمحضت لفقه المعاملات، وإن كان لفظ النوازل يشملها جميعاً، فيقولون: نوازل ابن سهل وأحكام ابن سهل، نوازل أبي المطرف الشعبي، وأحكام أبي المطرف الشعبي، رغم أن هذين الكتابين لا ذكر فيهما لفقه العبادات، وذلك من باب إطلاق العام وإرادة الخاص، فكل نوازل أحكام وليس كل أحكام نوازل»<sup>(١)</sup>

وقد اقتضت هذه التأليف على فقه المعاملات دون أن تتعرض لقضايا العبادات، ذلك أنها سجلت فصول الفقه العملي الذي كان يصدر عن مؤسسة القضاء الشوري الذي يتولى الفصل بين الخصوم، وحل النزاعات بين الناس على ضوء مقررات الشريعة وقواعد المذهب.

(١) عمر الجيدي: مباحث في المذهب المالكي في المغرب، ص ١٠٦. وقد ساق رحمه الله جملة من مؤلفات كتب الأحكام للأندلسيين والمغاربة.

# الأبحاث والدراسات

## دراسة تحليلية في

## رسائل فضائل أهل الأندلس

الدكتورة هدى شوكت بهنام(\*)

حَفِلَ كتاب نفح الطيب للمقري بنقل نصوص كثيرة من ضمنها: ثماني رسائل في موضوع واحد، هو جمع ما يتصف به أهل الأندلس من صفات ومزايا وفضائل، والتباهي والمفاخرة بها أمام أهل المغرب (بر العدو) أو أهل المشرق، وقد جمعت هذه الرسائل التي كتبها أهم أدباء الأندلس في عصور ازدهار هذه البلاد، وتعد هذه الرسائل وثيقة عن حضارة الأندلسيين كتبها أدباء عاشوا هذه الحضارة في عصور ازدهارها، فوصفوا ما عاشوه وما رأوا أعينهم بروح قومية تعتز بإعلاء شأن من عاش معهم ضمن هذه الرقعة الجغرافية، فكانوا أبناء باري للوطن الذي نشؤوا فيه وتربوا بين أحضانها، فقدموا سجلاً حافلاً للروائع التي اتصف بها أهلهم بأسلوب يجمع بين البساطة تارة وبين الصنعة تارة أخرى، وكاشفين نواحي مهمة نبغ بها شعراؤهم وكتابهم وصناعهم وفلاسفتهم وعلمائهم في نواحي اللغة وعلوم الحياة، وفي نواحي البناء والعمران، فمن يطلع على هذه الرسائل يدرك أنه قد عاش بين أحضان هذه البلاد أناس نقلوا جمال الطبيعة إلى واقع ظهر في أعمالهم الأدبية والعلمية والعمرانية ومناحي الحياة الأخرى.

وتعد هذه الرسائل ضرباً من الكتابة عمد إليه عدد من أدباء الأندلس، ونزعوا فيه منزعين منزع الصناعة وصفة التألق عندما يجد الكاتب أن طبيعة الموضوع الذي يطرقه يساعده على ذلك، ومنزع البساطة وصفة الاسترسال حين يعمد الكاتب إلى تسجيل قضايا وتحليل مجتمع وذكر مزايا وترديد أخبار، فكانت الرسالة الواحدة تجمع بين الأسلوبين الأدبي والمصنع والعلمي المرسل<sup>(١)</sup>.

\* أستاذة في كلية التربية - الجامعة المستنصرية - بغداد - العراق.

(١) الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه: د. مصطفى الشكعة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

وقد سار على هذا النهج من بعد هؤلاء الأدباء المقري في كتابه «نفع الطيب». وقد تناولت الدراسات الأدبية بعض هذه المفاضلات، ورأت أن قادة الفكر قد ازدادوا قوة إلى قوة ونشاطاً إلى نشاط، وتقدم النقد تقدماً ظهرت ثمرته فيما كان يُعنى به العرب حينذاك، فيما يعنون به من العلوم والفنون<sup>(١)</sup>.

والرسائل الثمانية هي: عن فرحة الأنفس لابن غالب، وعن نص لابن سعيد، وعن نص للحميدي، وعن نص لابن بسام، وعن نص للحجازي، ورسالة ابن حزم في فضل الأندلس، وتذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم، ورسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس<sup>(٢)</sup>.

### ١- فرحة الأنفس لابن غالب:

هو محمد بن أيوب بن غالب الغرناطي من أهل القرن السادس صاحب كتاب «فرحة الأنفس» الذي ينقل عنه المقري في مواضع، وقد بقيت من الكتاب قطعة نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات [٢٧٢/١-٣١٠]. وهي تختلف كثيراً عن نص المقري إلا في تشبيه الأندلسيين بالأقوام الأخرى، من هنا يكون لهذا النص أهمية كبرى في عدم وروده في نص الكتاب المنشور.

تضمنت رسالة ابن غالب الموضوعات الآتية:

١ - الثناء على الأندلس وأهلها، بناء على أمور فلكية أن بطليموس جعل كوكب الزهرة والياً على البلاد فتفوقت البلاد في: الملبس، المطعم، النظافة، الحب، الطهارة، الحب للهو والغناء، توليد اللحون.

٢ - عندما تكون ولاية عطاردة تفوق البلاد في:

حسن التدبير، الحرص على طلب العلم، حب الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف.

٣ - ذكر أيضاً ما خصّ به الأندلسيون من تدبير المشتري ولم يبين هذا التدبير.

٤ - وقسم ابن غالب الأندلس إلى أقاليم: الرابع، الخامس، السادس في ساحلها الشمالي، السابع في جزائر المجوس.

وكان للإقليم الرابع: الشمس، وللخامس: الزهرة، وللسادس: عطاردة، وللسابع:

القمر، وللثاني: المشتري، وللثالث: المريخ.

ثم تحدث عن عروبة أهل الأندلس التي تبينت في:

(١) الموازنة بين الشعراء: زكي مبارك، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٣٦، ٢٥٣.

(٢) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: لأحمد بن محمد المقري، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، ٣/١٥٠ - ٢٢٤٠. (٤) م. ن: ١/١٢٥: نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب، تحقيق: د. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٢٧٨.

الأنساب، العزة، الأنفة، علو الهمم، فصاحة الألسن، طيب النفوس، إباء الضيم، قلة احتمال الذل والسماحة، النزاهة عن الخضوع، و[عدم] إتيان الدنية، وينسب إلى الأندلسيين تسمية بأقوام معينة في عادات يمارسونها:

الهنديون في إفراط العناية بالعلوم وحبهم لها وضبطهم لها وروايتهم. البغداديون في ظرفهم، ونظافتهم، ورقّة أخلاقهم، ونباهتهم، وذكائهم، وحسن نظريهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدّة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم. اليونانيون في استنباطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم تركيب الشجر، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، وجعلهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة والزراعة.

وذكر في هذه المسألة من برز في تصنيف كتاب يتضمن هذه المعرفة وهو ابن بصال صاحب (كتاب الفلاحة) وميّزه بالفضل في التجربة.

وفضل الأندلسيين أيضاً في جانب الصبر على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، ومقاساة التعب في تحسين الصنائع، كما أنهم أحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب.

ولم يفت ابن غالب فضل الأندلسيين في اختراع الخطوط المخصوصة بهم بعد أن كان خطهم مشرقياً.

إلى هنا يتوقف كلام ابن غالب.

بعد ذلك كان لابن سعيد تعليق على خطوط أهل الأندلس:

بأن خط أهل المشرق على حسنه وقبوله إلا أن خط أهل الأندلس في شرق البلاد وغيره يتميز بحسن فائق، ورونق آخذ بالعقل، وترتيب يشهد لكاتبه بالصبر الكثير والتجويد.

ويذكر المقرئ هنا إضافة لابن حزم على كلام ابن سعيد بأن الأندلسيين صينيون في إتقان الصنائع العلمية وإحكام المهن الصورية، وتركيبون في معاناة الحروب ومعالجة آلتها والنظر في مهماتها، ثم يستمر كلام ابن غالب، فذكر من فضائلهم أيضاً: اختراع الموشحات التي جاراها أهل المشرق، ونظمهم ونثرهم، فلم يحدد فضلهم لوضوح علو طبقاتهم فيهما.

ويستمر كلام ابن غالب عن تفرق الأندلسيين وقت الفتنة الأخيرة، فيصف ما قدموه من حضارتهم إلى البلاد التي نزلوا فيها.

فقد تفرقوا في بلاد المغرب الأقصى من بر العدو مع بلاد إفريقية ومال أهل البادية في البوادي إلى ما اعتادوه، وتداخلوا مع البدو وحياتهم في استنباط المياه وغرس الأشجار واستحداث الرعي الطاحنة، ونقلوا إلى البدو معارفهم، فشرفت البلاد وعمّ الخير، وهم في هذا، كالإيونانيين لأنهم من الأقوام الذين سكنوا الأندلس فورثوا عنهم طباعهم، ومال أهل الحواضر إلى الحواضر واستوطنوها.

ويتحدث عن وظائف أهل الأدب منهم: الوزراء، الكتّاب، العمّال، جباة الأموال، المستعملون في أمور المملكة، ولهم الفضل في أنهم متى ما تعلموا صنعة حذقوها وجودوها حتى تميل النفوس إليهم، وتعترف لهم بذلك.

إلى هنا ينتهي النص المقتطع من كتاب «فرحة الأنفس» لابن غالب<sup>(١)</sup>.

إن هذا النص على أهميته الكبرى في اختصار المقرئ على ذكره، يحاول فيه ابن غالب مقارنة الأندلسيين بأقوام معروفين، لأجل أن يكون أهل هذه البلاد مشهورين أيضاً بسبب صفاتهم المشتركة مع أقوام معروفين، ومن ناحية أخرى أعطاهم التميز بالخط الأندلسي، وهذه صفة محلية خاصة بهم، لكنه أيضاً ذكر اختراعهم الموشحات التي عُرفت وشُهرت الأندلس بها، وما فضلهم عند حدوث الفتنة إلا في نقل معارفهم إلى الأقوام التي سكنوا معهم، وقد صاغ ابن غالب هذه الرسالة بأسلوب بسيط واضح بعيد عن الصنعة إلا في بعض الأحيان عند مقارنتهم بالأقوام الأخرى.

## ٢- نص ابن سعيد:

هو أبو الحسن علي بن موسى: مقيم كتاب «المغرب في حلى المغرب» من أهل قلعة يحصب، غرناطي، قُلعي، وهو وسطى عقد بيته وعلم أهله ودره قومه، المصنف الأديب، الرحالة، الإخباري، أخذ عن أعلام إشبيلية، وتوالياه كثيرة منها: المرقصات والمطربات، والمقتطف من أزاهر الطرف، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد، والمغرب في حلى المغرب، والمشرق في حلى المشرق. تعاطى نظم الشعر، ودوّّن الكثير من نظمه، ودخل القاهرة وبغداد، ودمشق وإفريقية سنة ٦٥٢هـ، مولده بقرناطة سنة عشر وستمائة، ووفاته بتونس في حدود خمس وثمانين وستمائة<sup>(٢)</sup>.

يبدأ ابن سعيد كلامه بتجريد النفس عن التعصب، وأن الحق أولى بالاتباع، ويرى أن البعض المطلع على نص ابن غالب ينسب إليه التعصب لأهل بلده، وإن عينه عن عيب أهل البلاد قليلة مستشهداً على ذلك ببيت شعري.

(١) النسخ ٣: ١٥٠-١٥٢.

(٢) المغرب في حلى المغرب: لابن سعيد (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، مصر، دار المعارف، ١٧٢/٢ - ١٧٩ - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥، ٤١٢-٤١١/١/٥ - الإحاطة في أخبار غرناطة: لابن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٤، ١٥٨-١٥٢/٤ - بغية الوعاة: للسيوطي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٥، ٢٠٩/٢ - ٢١٠ - نفح الطيب: للمقرئ ٢٧٠-٢٧٤ - وانظر ترجمته أيضاً في: اختصار القدح المعلى، تحقيق: إبراهيم الإيباري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠، ١ - فوات الوفيات: لابن شاعر الكني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، د.ت. ١٧٨/٢ - الديباج المذهب، ٢٠٨. مسالك الأبصار: لابن فضل الله العمري ٣٨٢/٨.

وللإنصاف يقارن مراكش في المغرب بغداد في المشرق بأنها أعظم ما في بر العدو، وهذه المدينة نمت وترعرعت في عهد بني عبد المؤمن الموحدين الذين كانوا يجلبون صناعاتهم من جزيرة الأندلس. أما مدينة تونس بإفريقية في عهد أبي زكريا يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص<sup>(١)</sup> فقد انتعشت وترفعت، ويعزو ذلك إلى المباني والبساتين والكروم وما شابهت به بلاد الأندلس، وجلب هذا السلطان صناعات تماثله من الأندلسيين، لأنهم كانوا (أعرف خلق الله)، وهذه الصفة الغالبة على جميع الناس قد بناها على صيغة مبالغ فيها كثيراً، فهو لا أعرف خلق الله في اختراع محاسن هذا الفن وقد كان أكثرهم من الأندلسيين، وإن ما في دولة ابن أبي حفص من خواطر نابهة، وزيادة ظهر حسن موقعها، ووجوه صناعات دولته هم من الأندلسيين.

إذن كانت رسالة ابن سعيد مؤيدة لما ورد في نص ابن غالب ومؤكدة، على الرغم من نسبة التعصب إليه (ابن غالب)، وسبب ذلك هو أن ابن أبي حفص سلطان إفريقية الذي سعدت البلاد بحكمه كان هو سبب هذه السعادة والراحة والاستقرار، وجاء النمو الحضاري في عهده بسبب الصناعات والحذاق الأندلسيين.

### ٣- نص الحميدي:

هو محمد بن فتوح أبو عبد الله الأزدي الحميدي، وأبوه يكنى أبا نصر، ولد بالجزيرة (بليدة بالأندلس) قبل العشرين والأربعمئة، فقيه، عالم، محدث، عارف، حافظ، إمام، متقدم في الحفظ والإتقان، روى بالأندلس عن جماعة، منهم: أبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد علي بن أحمد، وأبو العباس العذري، رحل بعد الأربعين والأربعمئة إلى المشرق فروى عن عدد من علمائه، له تواليف تدل على معرفته وحفظه، منها: كتاب «الجمع بين الصحيحين»، وكتاب «جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس» وعليه اعتمد الضبي في كتابه «البغية» ومنه نقل و«تسهيل السبيل إلى علم الترسيل»، توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمئة ببغداد بالمشرق<sup>(٢)</sup>.

يبدأ نص الحميدي برواية عن إنشاد قطعة شعرية من ثلاثة أبيات بحضرة بعض ملوك

(١) أحد من بايع أبا يعقوب يوسف بن محمد بن عبد المؤمن سنة ٦٠٠ هـ [المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، لجنة إحياء التراث العربي، ١٩٦٣، ٢٠٤-٤٠٦].

(٢) انظر ترجمته في: فهرسة ابن خير الأموي الأشيلي، تحقيق: إبراهيم الإيباري، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري اللبناني، ١٩٨٩، ٢٧٧/١ - بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس: للضبي، تحقيق: إبراهيم الإيباري، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٨٩، ١٦١/٢ - كتاب الصلة: لابن بشكوال، تحقيق: إبراهيم الإيباري، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٨٩، ٨١٨/٣ - وفيات الأعيان: لابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧١، ٢٨٤-٢٨٢/٤ - نفح الطيب ١١٢/٢ - شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي، بيروت، المكتب التجاري، ٣٩٢/٣.

الأندلس، والقائل من أهل المشرق في الغزل حيث يعاتب أحبه ماذا لو أجابوا سلامه فردوه له، وأنهم قد علموا أنه مشوق إليهم متيم بهم، ويصف جمال أحبه، وهو على الرغم من استخدامه ضمير الجماعة إلا أنه يقصد محبوبته، لكنه لا يسميها خوفاً من افتضاح أمرها، لذلك وصف مسيرها في الليل عند ظهور نجوم الليل الزاهرة، لكن أحبه هم كانوا المشرقين بنورهم وحين أخفوا مسيرهم على تلك المطايا التي تقلهم، بأن التيسم على تلك المطايا في الظلام.

فبالغ وزاد بعض الحاضرين في استحسانها وقال: إن الأندلسي لا يستطيع على الإتيان بمثل جودة هذه الأبيات، ولكن كان في حضرة ذلك المجلس أبو بكر يحيى بن هذيل الشاعر الأندلسي (ت ٣٨٦هـ) فقال بديهة مقطعه من ستة أبيات جميلة في المعنى نفسه، فقد وصف مسير الأحبة، وأن عطر الريح جعله يعرف أين كانوا يسكنون، وأين استقل الظاعنون ظعنهم، وأين خيموا خيامهم، فاستخدم الجناس وكنى عن الحبيبة أيضاً بواو الجماعة، فيحدث صاحبيه (خليلي) ويطلب منهما أن يرداه إلى جانب حمى الحبيبة، لأنه لا يتيم بدون تراب حماها، وأنه يبيت في الصحراء ساهراً يسامر النجوم التي كنى عنها بالفرقدين، كأنه قد اتخذ وساده من الشوك وبقربه الأرقم، ثم يتحول إلى وصف الحبيبة بأسلوب رقيق، بأن حبيته ذات عيون حوراء، صاحبة جفون ناعسة نعسانة، قامتها تشبه قضيباً من الريحان اللدن الذي يسهل عليه التمايل والتحرك وهو أيضاً منعم، وحين نظر الشاعر إلى عينية التي كنى عنها (بأجفانه) وإلى محبته تيقن أنه سوف لا يسلم من حبه، مشبهاً أمره بإبراهيم حين نظر أول مرة فرأى في الدراري وعلم أنه سيكون فيها سقامه، عندما وعده الرب أن نسله سيكون بعدد نجوم السماء ورمال الأرض.

وهنا ينتهي النص ولا يتعدى المفاضلة بين نصين والاكتفاء بذكرهما دون شرح أو تعليق أو نقد.

#### ٤ - نص ابن بسام:

هو أبو الحسن علي بن بسام التغلبي الشتريني، قضى الكثير من حياته في بلدة شترين، لم يلاقِ العلماء، ولم يرو عنه الرواة، ولم يشتهر إلا بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ولعل هذه الأمور من أسباب إغفال الأدباء لترجمته، وهو وجه من وجوه العلم والأدب بين الناس، ولادته في منتصف القرن الخامس الهجري، سلك في علمه مسلك سنن أهل الأندلس ولم يؤثر من شيوخه إلا واحد هو أبو القاسم محمد بن عبد الله ابن الجدد، ذكر صلته به في نهاية ترجمته لهذا الشيخ ابن الجدد، وكانت وفاته سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة كما ذكر المقرئ صاحب نفع الطبيب<sup>(١)</sup>.

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن بسام، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨ =

في نص ابن بسام يتحدث عن فتح بلاد الأندلس وهم من عرب المشرق من سادات أجناد العراق والشام، وحين نزلوها توزعوا فيها بكل إقليم واتخذوا لهم نساء من ذلك الإقليم لذلك توزع نسلهم في الأندلس كلها، ولما كان هؤلاء المشاركة أصحاب بديهة منذ الفطرة فقد كان لا يخلو بلد من كاتب ماهر، وشاعر قاهر، وينقل نصاً عن أبي علي القالي صاحب الأمالي، قاس فيه فهم أهل القيروان حسب تفاوتهم في مواضعهم المكانية قرباً وبعداً، ولما كان أهل الأندلس أكثر بعداً فإنه سيحتاج إلى ترجمان لفهم كلامهم، لكنه يصل كلامه بعكس ما تصوره عنهم بأنه تعجب من ذكائهم، ويزيدون عليه عند المباحثة والمناقشة، ويقول (الثاني) إن علمه علم رواية لا دراية أي أنه لم تكن لديه دراية كافية عن أهل هذه البلاد، ويطلب أن يؤخذ عنه ما ينقل بعد أن صحح مفهومه، هذا كله مع إقرار الجميع له بسعة العلم وكثر الروايات، والأخذ عن الثقات.

من هنا نجد أن ابن بسام قد نقل نصاً للقالي عن فضل وذكاء أهل الأندلس ليؤكد به صحة فكرته.

##### ٥ - نص الحجازي:

هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن إبراهيم الحجازي: صاحب كتاب (المسهب في فضائل المغرب) هو أول من أسمى هذا التصنيف، وفتح باباً لمن بعده من بني سعيد، أثنى عليه والد ابن سعيد من طريق البلاغة نظماً ونثراً ومعرفة التصنيف، وقد على عبد الملك بن سعيد، وهو حينئذ صاحب القلعة المنسوبة إلى سلفه، وأنشده قصيدة فاخبره عبد الملك وحمده، فصف له كتاب (المسهب) وهو أصل كتاب المغرب، وكان شاعراً أورد له ابن سعيد مقطوعات عدة<sup>(١)</sup>.

إن نص الحجازي منقول عن كتابه المسهب، حيث يقرن أهل الأندلس بأهل العراق، فهم عراق المغرب في النواحي التالية:

عزة الأنساب، رقة الآداب، مع الافتتان بهما نظماً ونثراً واشتغالاً بفنون العلوم، وأنهم في كل مصر نجوم وبدور وشموس، لأنهم أشعر الناس في وصف طبيعة بلادهم الجميلة لا ينازعهم في ذلك أحد، وجعل ابن خفاجة أشعر شعراء الأندلس في وصف الطبيعة، وهنا يخص الحجازي نواحي الطبيعة التي يتفوق الأندلسيون في وصفها، إضافة إلى وصف الحبيبة ووعدا وزيارتها في الظلماء ولقائها بالحبيب حتى الصباح، أو وصف كواكب السماء التي يغطيها الصباح، وهم أيضاً لا يقصرون في وصف المعارك ورماحها وسلاحها، ويخصهم

= ٣٢٢/١/٢ - المغرب ٤١٨-٤١٧/١ - مسالك الأبصار ٢٠١/٨ - نفح الطيب ٤٥٨/٣ - ابن بسام وكتابه الذخيرة: د. حسين يوسف خربوش، عمان، دار الفكر، ١٩٨٤، ١٧ - ٢٦.  
(١) المغرب ٣٥/٢ - ٣٦.



عموماً بالتفوق في كل الأوصاف والتخييلات، والذي يقف على أشعارهم هذه يفضلهم على الجميع.

وهنا يبين الوسائط التي ساعدتهم على تفوقهم هذا، وهي:

أنسابهم العربية، وطبيعتهم الجميلة، وهنا ذكر شطار الأندلس المختصين بال نوادر بال نوادر والتنكيات والتركيبات وأنواع الضحكات، بأنهم من الكثرة بحيث تملأ الدواوين في هذه شعرهم هذا الذي يسلي المحزون، حتى إنهم فاقوا الجاحظ بنوادره التي أوردها في كتبه، لكنه يَلْحَى الأندلسيين على عدم التأليف في هذا اللون من الأدب بحيث ضاع، لذلك تدارك هذه المسألة فجمع ما تَسَنَّى له الحصول عليه في أدب النوادر، بحيث تظهر فيه نواحي النبوغ حتى وصفها (بالشعاع).

#### ٦- رسالة ابن حزم في فضل الأندلس<sup>(١)</sup>

ابن حزم: هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي من أهل قرطبة، يُكْنَى أبا محمد، روى عن القاضي يونس بن عبد الله. وأبي بكر حمام بن أحمد القاضي وغيرهما. وكان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسع في علم اللسان والبلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار، له من التأليف نحو أربع مائة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة، وكان حافظاً في علوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متقناً في علوم جمّة، متواضعاً، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات كثيراً، وكان ذكياً سريع الحفظ، كريم النفس والتدين، له في الآداب والشعر نفس واسع، وشعره كثير جمعه الحميدي على حروف المعجم، ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلثمائة وتوفي ست وخمسين وأربع مائة للهجرة<sup>(٢)</sup>.

(١) كلام عن اسم الرسالة نجده في رسائل ابن حزم ٣٥:٢ وقد ذكر الحميدي فقرات هذه الرسالة في كتابه جذوة المقتبس موزعة على تراجم أسماء الأدباء المذكورين فيها [ينظر جذوة المقتبس للحميدي، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٨٩، ٤٦٤/٢، ٤٧٣، ٤٨٩، ٥٢٣]. لذا يعد نص الجذوة هاماً لمقارنته مع نص المقرئ، كما استخرج د. إحسان عباس هذه الرسالة ونشرها ضمن كتابه (تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - الصفحات ٢٩٢-٣١٣)، ثم نشرها د. صلاح الدين المنجد مع رسالة الشفندي الواردة أيضاً في النفع تحت عنوان (فضائل الأندلس وأهلها، بيروت، ١٩٦٨، وللأستاذ جعفر ماجد بحث حولها نشره في حوليات الجامعة التونسية عدد ١٣، ١٩٧٦، بعنوان: [العلاقات الأدبية بين قرطبة والقيروان في القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة].

(٢) الصلة: لابن بشكوال، تحقيق: إبراهيم الإبياري، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٨٩، ٦٠٥/٢ - ٦٠٦. [وانظر ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٨٩، ٥٤٣/٢ - ٥٤٥ - المعجب: لعبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد =

تبدأ رسالة ابن حزم برسالة أبي علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي القيرواني، أصله من تاهرت، كان عارفاً بالأدب وعلم النسب، قوي الكلام، يتكلفه بعض التكلف، وكان عبد الكريم النهشلي أستاذ ابن رشيق القيرواني (صاحب كتاب العمدة) يعدّه شاعراً مقدماً<sup>(١)</sup>.

بعث رسالة ابن الربيب إلى أبي المغيرة بن حزم، ويذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم<sup>(٢)</sup>.

فيورد في البداية ما تتمتع به بلاد الأندلس من فضل وخير وطرفة، ونيل آمال الراغبين، وفيها تنجح التجارة، ويكثر العلماء والأدباء، وملوكها يحبون العلم وأهله ويرفعون المتميز بأدبه، وكذلك سيرتهم في الحرب، يقربون الشجاع والمتمرس في فنون القتال، مما أيقظ الجبان للإقدام في الحرب، وكل من فيه عيب تنبه لنفسه وحاول التعلم والتقدم، فتنافس الناس في العلوم والفنون، وهنا يكمن تقصيرهم في أن علماء الأمصار خلدوا أهل بلادهم في الكتب وأخبار ملوكهم وأمرائهم وكتابهم ووزرائهم وقضاتهم وعلماءهم، فخلدوا ذكرهم على مرّ الأيام.

أما أهل الأندلس فلم يفعلوا كذلك مع أن علماءهم متفوقون في كل علم، وقد بيّن سبب عدم شهرة الآداب والمصنفات الأندلسية:

١ - لأن أهل البلاد لا يتحركون إزاء هذا العمل، ولا يتعبون أنفسهم في جمع فضائلهم، ولا يكدون خاطرهم في البحث عن مفاخر الملوك والكتاب والوزراء.

٢ - لأنهم يخشون نقد الآخرين لهم على تصنيفهم.

٣ - كان همّ العلماء والأدباء التسابق في حياتهم لأخذ المكانة العليا في علمهم وأدبهم، فإذا ما وصلوا إلى بغيتهم، ثم بعد ذلك ماتوا ودفن معهم علمهم وأدبهم ومات ذكرهم وانقطع خبرهم، ولو ألفوا الدواوين لخلد ذكرهم.

٤ - وإن ادّعى أحدهم أن مثل هذه الكتب قد أُلّفت لكنها لم تصل إلينا، فيرد ابن الربيب - وهو مغربي - على ادّعاء هذا الإنسان أن المغرب قريبة من الأندلس، وما يؤلف فيها يصل -

= العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٩، ٣٢-٣٥. المطرب: لابن دحية، تحقيق: إبراهيم الإياري وآخرون، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٤، ٩٢. المغرب ٣٥٤/١ - ٣٥٧. رايات المبرزين: لابن سعيد، تحقيق عبد المتعال القاضي، القاهرة، مطابع الأهرام، ١٩٧٣، ٦٩-٧٠. وفيات الأعيان ٣/٣٢٥ - ٣٣٠. الإحاطة ٤/١١١ - ١١٦. الشذرات ٣/٢٩٩ - ٣٠٠.

(١) المسالك ٣١٩/١١ نقلاً عن أنموذج ابن رشيق.

(٢) يذكر د. إحسان عباس أن سبب كتابة هذه الرسالة يمثل موقفاً عاماً للأندلسيين من الحياة الأدبية وهل فيها من يمكن أن يوضع إزاء شعراء المشرق. [تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٩، ١٤١].

إليهم، فكما أَلَفَ ابن عبد ربه كتابه العقد ووصل إليهم الكتاب، وهو ينحى عليه أنه لم يجعل واسطة عقده لمآثر أهل بلده، فكان بهذا كالأخرين الذين أهملوا فضل بلادهم.

وهنا يبدأ أبو محمد بن حزم بالرد على رسالة ابن الربيب، ويوجه خطابه إلى أبي بكر محمد بن إسحاق المهلبلي الإسحاقى الوزير من أهل الأدب والفضل، كان صديقاً لابن حزم يتنقلان معاً في أرجاء الأندلس واعتقلهما خيران معاً<sup>(١)</sup>.

قسم ابن حزم رسالته إلى ثلاثة أقسام، الأول: اتبع فيه أسلوباً سهلاً مرسلاً خالياً من التعقيد اللفظي الذي يثبت فيه السجعة المواتية ويتركها إذا لم تكن طوع الخاطر، ويعمد إلى أسلوب المحاجة وبسط المقدمات حتى يصل إلى نتائج يرضاها، وقد أحب ابن حزم وطنه ودافع عنه، وخص مدينته قرطبة بمزايا جعلها تفخر بها على غيرها من المدن، ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن هذه الرسالة تدرج تحت باب الكتابة العلمية الأدبية؛ أي التي يناقش الكاتب من خلالها قضية تحتاج إلى سند من المنطق والتاريخ في إطار من ريق القول أو عذوبة الأسلوب، وهذا الأسلوب من الكتابة لا يوجد منه إلا قلة من الكتاب.

والقسم الثاني من رسالة ابن حزم، يحصي فيها علماء الأندلس من معاصريه وسابقيه مع أسماء كتبهم، وعرض الموضوعات التي كتبوا فيها وأوفوها حقها دراسة وبحناً، كال تفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والتاريخ والخطط والأنساب والأخبار واللغة والشعر والفلسفة والطب والهندسة والحساب، وعرض ذلك بتفصيل وأسلوب مصطنع فيه التأنق وتنميق الكلمات.

والقسم الثالث: يُجري فيه ابن حزم مقارنة بين أعلام علماء الأندلس ونظرائهم من أعلام علماء المشرق كل في ميدانه، مع ميل مقنع إلى تفضيل علماء الأندلس على غيرهم، في أسلوب علمي لم تدخله الصنعة<sup>(٢)</sup>.

والآن لنشرح أقسام الرسالة بالتفصيل بعد أن بينا أسلوبها في كل قسم، فابن حزم يبدأ رسالته بالحمد لله والصلاة على رسول الله، ثم توجيه السلام إلى مخاطبة أبي بكر، وبعث أشواقه إليه، وأنه لم يطل مقامه عنده بحيث يقضي من محاورته ما يبغيه، وأنه قد بحث في مكتبة صديقه أبي بكر فوجد فيها خطاباً لبعض الكتاب من أهل إفريقية من القيروان موجهة إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه ولا نسبه (وهنا يقصد ابن الربيب ورسالته التي وجهها إلى أبي المغيرة بن حزم، ويعلق محقق كتاب نفح الطيب الدكتور إحسان عباس بقوله: إن ابن بسام والمقري قد صرّحا باسم المخاطب (أبي المغيرة بن حزم) وأن أبا المغيرة ردّ عليه برسالة أطال فيها القول، وختمها بذكر جملة من تواليف أهل الأندلس<sup>(٣)</sup>).

(١) بغية الملتبس: ٨٦/٢.

(٢) الأدب الأندلسي: مصطفى الشكعة: ٦١٤، ٦١٨-٦١٩.

(٣) الذخيرة ١/١-١١٦، النفح ٣/١٥٦-١٥٩.

ويذكر ابن حزم أن همم أهل الأندلس قد قصّرت في تخليد مآثر بلدهم ومكارم ملوكهم، ومحاسن فقهاءهم، ومناقب قضاتهم ومفاخر كتابهم وفضائل علمائهم، وهكذا يستعبد ما ورد في الرسالة من أن عدم تخليد هؤلاء الأعلام أدّى إلى أن يذفن علمهم معهم، وأنه لو كان شيئاً من هذه التأليف موجوداً لنقل إلينا، ثم لما ضمّه المجلس مع صاحبه مرة أخرى تذاكر مختلف العلوم والآداب فوصف المجلس بأوصاف كثيرة، وهنا أعاد عبارته بأسلوب بلاغي مرات عديدة بأشكال مختلفة، كل عبارة فيها ناحية من نواحي الفنون التي امتلأ بها المجلس، وأثنى على صاحب المجلس بالطريقة نفسها، وأعطاه كل صفة كريمة متميزة عالية، وقمة ما أثنى به على ممدوحه أنه اكتفى من مدحه باسمه المشهور، بمعنى أن اسمه يغني عن كل مدح، واسمه (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونت، يلقب بيمين الدولة، والبونت من أعمال بلنسية بقي حاكمها فيها حتى سنة ٤٣٤هـ<sup>(١)</sup>)، فوجد ابن حزم أن صاحب البونت حريص على أن يجاب هذا المخاطب (ابن الربيب)، وقد بلغه أن الأخير قد توفي فلا فائدة من الرد عليه، فرأى أن يكون ردّه على صديقه أبي بكر، لأن منه قد حصل على الرسالة، فهو الأجدر بالجواب من غيره بعد أن توفي صاحب الرسالة (ابن الربيب)، وهو في ردّه على أبي بكر كأنه يخاطب كل من يطلب معرفة مآثر أهل الأندلس، فبدأ بالناحية التاريخية بأحمد بن محمد الرازي التاريخي، وذكر كتبه في مسالك الأندلس ومراسيها وأمهاث مدنها، وروى حديثاً شريفاً فيه نبوءة عن غزاة في البحر ثم تحققت، وسرد بتسلسل تاريخي الغزوات التي حصلت عن طريق البحر، وقائد هذه الفتوحات حتى سنة ٣٥٠هـ، وأن أكثر المفتحين للبلاد هم أهل الأندلس.

وبداً بقرطبة أول أقاليم الأندلس لأن فيها مسقط رأسه، وفيها قضى سني طفولته حتى تجاوزها فيها. وذكر تمكن أهل قرطبة في علوم القراءات والروايات وحفظ كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم، وناقش حقيقة رأي ابن الربيب من تأخر ذكر مآثر أهل البلاد، وبيّن قلة المؤلفات عن القيروان وإفريقية إلا كتب ابن يوسف الوراق وهو قيرواني الولادة، أندلسي المنشأ والحياة وألف أحد كتبه للمستنصر، وهنا يتوصل إلى إجماع المؤرخين [على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها، ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها إلى أن مات] هذه الحقيقة أكدها بالأمثلة على شخصيات كثيرة في بلاد المشرق قضت أكثر أعمارها في بلادها، ثم هاجرت إلى بلاد أخرى وتوفيت فيها، فإنها تنسب إلى البلاد التي توفيت فيها، وهذه المسألة أكدها مرة ثالثة حين خص القالي

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٦٥، ٢٠٨. يرجح د. إحسان عباس أن زمن تأليف الرسالة يقع بين سنتي ٤٢١-٤٣٤ هـ وهو زمن حكم يمين الدولة الذي ذكر الرسالة بمجلسه [رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١، ٣٧/٢].

(البغدادى) وابن هانئ (الإفريقي) اللذين هاجرا إلى الأندلس، بأنهما يجب نسبتهما إلى الأندلس وبهذا فأهل هذه البلاد المهاجر إليها أحق بهما من بلدهما الأولى، ومن هنا أعطى إلى الثقافة الأندلسية صفة العراقة والقدم، ويعود إلى مدح بغداد والبصرة والكتب التي ألّفت في أخبارها، فيرى أنها قليلة وشاملة لغيرهما من الأمصار، وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والريّ والسند وأرمينية وأذربيجان فلم يعلم لها تاليفاً يخص ملوك وعلماء وشعراء وأطباء تلك النواحي، وتاقت النفوس إلى تأليف عن فقهاء بغداد فلم يؤلّف، ولو ألّف لوصل إلينا كما وصلت تأليف غيرهم من الأمصار، ويذكر بعض مؤلفات الأندلسيين الفقهية في الرد على الفقهاء المشاركة.

ثم يلتفت إلى الأندلسيين فيراهم ينطبق عليهم المثل (أزهد الناس في عالم أهله) وأنه قرأ مثل ذلك في الإنجيل والسيرة، والأندلس خُصّت من حسد أهلها للعالم الظاهر الماهر واستهجانها لحسناته، وتتبعها سقطته وعثراته، فإن أجاد قالوا: سارق مغير ومتحل مدع، وإن توسّط قالوا: غث بارد وضعيف ساقط، وإن باكر السبق، قالوا: متى كان ذلك، وإن استمر في تفوقه صار هدفاً للأقوال وعرضة للتعريض إلى غرضه، وربما نُحِل ما لم يقله، وهنا يصل إلى ما يحمي مثل هذه الموهبة بأن هذا المتميز إذا لم يتعلق بسلطان ويسلم، فإن تعرض لتأليف غُمز وشُئّع وذُهِب محاسنه، وهكذا من ابتدأ يحوك شعراً أو يعمل رسالة، فانه لا يُقِلت من هذه الحبال، ومع ذلك فقد جمعت المؤلفات الحسنة في معارف شتى يذكر أسماءها ومؤلفيها، ويعلق برأيه على بعضها، وهي في الفقه وتفسير القرآن والحديث وأحكام القرآن وفي الحديث أيضاً وفي القراءات، وشرح الحديث، وفي المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال، وفي الفقه واللغة، وفيها يُعد القالي المشرقي من مؤلفات الأندلسيين إلحاقاً بكلامه أن من يهاجر إلى بلد ويقيم فيه ينسب إلى ذلك البلد، ويذكر كتاباً جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التّياني<sup>(١)</sup> في اللغة، ويذكر قصة عن نزاهته العلمية، في التأليف، ويذكر كتاب النوادر لصاعد البغدادي ويعدّه من كتب الأندلسيين أيضاً، ويجعله مبارياً لكتاب (الكامل) للمبرد، ومثلهما كتاب (الفصوص) لصاعد البغدادي.

وهناك مؤلفات أخرى في الأنحاء والشعر وتراجم الشعراء والتشبيهات في شعرهم، وفي الأخبار، كتاريخ الرازي، وكتاب آخر له في صفة قرطبة على نحو كتاب ابن أبي طاهر في أخبار بغداد، وهناك تواريخ متفرقة أخرى، وكتب في التراجم وأخبار المدن وأهلها، وقضاة قرطبة وأخبار الفقهاء، وأنساب مشاهير أهل الأندلس، وفضائل بني أمية، وأصحاب المعافل

(١) تمام بن غالب اللغوي القرطبي المعروف بابن التّياني، إمام في اللغة، ثقة في إيراده، دُين ورع، له (تلفيح العين في اللغة) لم يؤلف مثله اختصاراً أو إكثاراً، مات بالمرية في أحد الجمادين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. انظر ترجمته في: الجذوة ١، ٢٨٣، الصلة ١: ٢٠٠-٢٠١، بقية الوعاة ١: ٤٧٨-٤٧٩.

والأجناد الستة<sup>(١)</sup> بالأندلس، كما جُمعت كتب كثيرة في أخبار شعراء الأندلس للمستنصر، منها: في أخبار شعراء البيرة، وأهل الأندلس، وسير ابن أبي عامر، وطبقات الكتاب بالأندلس.

وهناك كتب في الطب والفلسفة والعدد والهندسة.

ثم يذكر مراتب التأليف وتقع في سبع مراتب لا يؤلف عاقل إلا في أحدها وهي:

١ - شيء لم يُسبق إليه يخترعه.

٢ - شيء ناقص يُتمه.

٣ - شيء مستغلق يشرحه.

٤ - شيء طويل يختصره دون الإخلال بمعناه.

٥ - شيء متفرق يجمعه.

٦ - شيء مختلط يرتبه.

٧ - شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه.

أما التأليف المقصورة عن مراتب هذ التأليف فلم يذكرها، وهي في أهل بلده كثير لم يذكرها، بمعنى أن ما ذكره من مؤلفات تنحصر ضمن هذه الأقسام السبعة، وحصره للمؤلفات بهذه الأقسام وهو الكاتب المتنوع الفنون تبين أن ما اختاره مبني على معرفة ودراية ونقد، خاصة وأنه كان يعلق على أكثر ما ذكره من المؤلفات.

وكان التأليف في علم الكلام قليلاً لعدم اختلاف النحل في الأندلس، ولكن مع ذلك لم ينعدم التصنيف في هذا العلم، ويذكر هنا كتباً في الاعتزال، ويذكر هنا كتابه (المجلى) وهو متن شرحه بالمحلى، وهو في المذهب الظاهري، فيصف كتابه ومنهجه وبيّن فوائده، وهنا يوضح بأن له تأليف جمّة في هذا المذهب لم يسمها تواضعاً منه، بعضها أتم تأليفه، وبعضها طلب عون الله في إتمامها.

وهنا بعد أن ذكر ما يريده من مؤلفات بين أن فضل الأندلس في التأليف كبير جداً، بأن هذه البلاد على بعدها عن مركز حضارة العرب (العراق) لكن ما فيها لو طُلب في بلاد أخرى لما وجد، حتى لو كانت البلاد قريبة جداً من العراق، ويوازن بين أعلام الأندلس والمشرق، فأبو الأجر الكلابي الشاعر يباهي به الفرزدق وجربراً، لأنه عاش في عصرهما، وأنه جار على مذهب الأوائل، والبخاري والنيسابوري والسجستاني والنسائي يسابق بهم بقي بن مخلد،

(١) هم الطالعة الثانية من الجنود العرب الفاتحين للأندلس دخلوها مع أبي الخطار حسام الكلبي. فأنزل أهل دمشق بالبيرة، وأهل الأردن بيرة، وأهل فلسطين بشذونة، وأهل حمص بإشيلية، وأهل قسرين بجيان، وأهل مصر بياجة، وقسماً منه بتدمير، وهؤلاء هم الذين أسماهم ابن حزم (الأجناد الستة) [الإحاطة ١٠٣/١، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: د. منجد مصطفى بهجت، الموصل، دار الكتب، ١٩٨٨، ٢١].

ويستمر بهذه الطريقة في المقارنة مستخدماً الأفعال: (نباهي، نسابق، نناطح، لم يقصّر) وهي أفعال أُريد بها المفاضلة لا المقارنة.

أما عن الشعراء فإنه يقارن القسطلبي ببشار وحبيب والمتنبي، وأيضاً جعفر المصحفي وأحمد بن عبد الملك وغيرهم ويلقبهم بالفحل والحصان.

ومن البلغاء يتحدث عن ابن شهيد ويبين مكانته بين البلغاء، وهو معاصر له، لكنه لا يرضى عن مسلكه لأنه فقيه وهذا غير ملتزم.

وهنا ينهي رسالته ببيان ما زاده في الردّ إذا دعت الحاجة، وهذه الرسالة مبنية على منهج واضح؛ بين فيه أنواع الكتب المؤلفة في الأندلس حسب الأقسام التي بينها لا حسب الفنون، وإن كان قد وضّحها كلها، ثم يقارن بين أنواع هذه الفنون بين الأندلس والعراق وغير ذلك من أعلام المشرق.

#### ٧- تذليل ابن سعيد على رسالة ابن حزم:

ورأى ابن سعيد أن يظهر الوجه الفكري والعلمي للأندلس فذيل على رسالة ابن حزم<sup>(١)</sup> وأورد في مستحدثات العلوم التي لم تكن قد نشأت في عهد (ابن حزم) مجموعة من التأليف وأسماء مؤلفيها مما استجد في عصره، وهي في علوم القرآن حيث كان لمكي بن أبي طالب (٧٧) تأليف، وكانت وفاته سنة ٤٣٧ هـ، وكذلك كان لابن عطية في تفسير القرآن الكتاب الكبير.

ويورد المؤلفات الأخرى في القراءات والحديث والفقه وأصول الدين وأصول الفقه والتواريخ، ككتاب المتين والمقتبس والمظفر، وتاريخ ابن صاحب الصلاة في الدولة اللتونية وغيرها كثير، وبين عدد أسفارها مع مذيلاتها وبعض المعلومات السريعة عنها، وضمنها كانت كتب الأدب كالحقائق للحياتي والموسوعية منها كالذخيرة لابن بسام، وكتابي القلائد والمطمح لابن خاقان وذكر كتابي (المشرق والمغرب) وقصة مؤلفيه الستة الذين توارثوا على تصنيفه في مدة ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ هـ، وأعطى فكرة واضحة عن محتوى الكتاب خاصة وإن (ابن سعيد) كان آخر من توارث على تأليف (المغرب).

ثم ذكر كتب النثر ككتاب (سراج الأدب) لابن أبي الخصال، صنّفه على طريقة النوادر للقاللي، وزهر الآداب للحصري وهو من القيروان، مما يعني أنه لا يفرق بين أندلسي ومغربي.

(١) هذا ما يوحى بأن ابن حزم لم يلم بكل مؤلفات معاصريه، ويرد د. إحسان عباس ذلك إلى سببين: ١- إنها لم تكن في نظر ابن حزم قيمة بدليل تمييز غيرها. ٢- إنها كتبت بعد تاريخ الرسالة باعتباره قد ألف رسالته في وقت مبكر من حياته، والدليل على ذلك رسالة ابن سعيد المذيلة للمصادر التي أغفل ذكرها ابن حزم [رسائل ابن حزم ٣٨/٢].

ويستمر في تعداد المصنفات في علوم النحو والجغرافية والموسيقى والفلسفة والطب وأخيراً في التنجيم، وهو يذكر معلومات كافية عن المؤلف وظروف التأليف.

#### ٨- رسالة الشُّقْنُدي في الدفاع عن الأندلس:

الشُّقْنُدي: هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد المولود في شقْنُدة الأندلسية، وهي قرية مطلة على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب. قال ابن سعيد: وهو ممن كان بينه وبين والدي صحبة أكيدة، ومجالسات أنس عديدة، ومزاورات تتصل، ومحاضرات لا تكاد تنفصل، وانتفعت بمجالسته، وله رسالة في تفضيل الأندلس، يعارض بها أبا يحيى في تفضيل بَرّ العدو، أورد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المنزَع وعذوبة المشرع، وكان جامعاً لفنون من العلوم الحديثة والقديمة، وعُني بمجلس المنصور، فكانت له فيه مشاهد غير ذميمة، وولي قضاء بَيّاسة وقضاء لورقة، ولم يزل محفوظ الجانب، محمود المذهب، له قصيدة في مدح المنصور، وقد نهض للقاء العدو، وأخرى في النسب، وفي عُودِه لما مرض، توفي في إشبيلية سنة ٦٢٩هـ<sup>(١)</sup>.

كتب الشُّقْنُدي هذه الرسالة انتصافاً لأهل الأندلس ودفاعاً عنهم حين قصرت همهم في الدفاع عن بلدهم، وأصبحوا معتمدين على البرّ الإفريقي، فقال ابن سعيد نقلاً عن والده (أحد المشاركين في تأليف كتاب المغرب)، أنه كان في مجلس صاحب سبّة بالمغرب فجرى بين الشُّقْنُدي وأبي يحيى بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرّين فقال الشُّقْنُدي: لولا الأندلس لم يُذكر بَرّ العدو، ولولا توقيري للمجلس لقلت ما تعلم، فردّ عليه الأمير أبو يحيى: أتريد أن تقول كون أهل بَرّنا عرباً وأهل بَرّكم بربراً؟ فقال: حاشا لله، فقال الأمير: والله ما أردت غير هذا، فقال ابن المعلم: إن الفضل من بَرّ العدو، فاقترح الأمير أن يعمل كل واحد منهما رسالة في تفضيل بَرّه.

لذلك اتسمت رسالة الشُّقْنُدي من أولها إلى آخرها بالحماس الشديد، وأما التأنق في صياغتها والاهتمام بأسلوبها فقد جعل منها قطعة أدبية من النثر الفني، فضلاً عن كونها سجلاً أدبياً واجتماعياً وتاريخياً وعلمياً لبلاد الأندلس<sup>(٢)</sup>.

فكانت رسالة الشُّقْنُدي التي بدأها بحمد الله الذي يجعل كل من يفخر بجزيرة الأندلس يتكلم ويزيد ويطنب، ويثني على طباعه التي ستساعده في بيان الفضل للبلاد، ويروح فيباهي ببرّ الأندلس، مستشهداً بالأمثال والأشعار على فخر أهله، وبالمقابل يزري ببرّ العدو، ويبين مفاضلته في نقاط:

(١) اختصار القدح المعلى لابن سعيد، تحقيق: إبراهيم الإياري/ ط٣، بيروت، دار الكتاب اللبناني/

١٩٨٠، ١٣٨. نفع الطب ٢٢٢/٣-٢٢٤.

(٢) الأدب الأندلسي: مصطفى الشكعة ٦٢٠.



١ - كرسى الخلافة: فإنها إذا كانت في جميع بلاد المغرب بخلافة بني عبد المؤمن الموحدين، فإنها كانت في الأندلس بخلافة القرشيين، ويستشهد على ذلك بيتي من شعر محمد بن عبد الملك حفيد عبد الرحمن الناصر، ويتبين ما كان في مدة هذه الخلافة من حضارة وفضل وشهرة في الآفاق حتى ذهب ملكهم، ثم تحدث عن الخلافة العامرية خلافة المنصور ابن أبي عامر) والأمجاد التي قيلت في الحاجب، ثم بين حالة الأدب في وقت الفتنة ثم الطوائف، وأن الأدباء كانوا يتزلفون عند الملك، لذلك سادت الأمجاد وعرف [من] ملوك الطوائف: بنو عباد وبنو صمادح وبنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود، وكل منهم قد خلد فيه من الأمجاد الكثيرة المجيدة، ونال الشعراء عطايا كثيرة حتى أنه بلغ بعضهم أن لا يمدحون أحداً بقصيدة إلا بمائة دينار، ويكرر قصة أبي غالب اللغوي الذي ألف كتاباً، ورفض جعله باسم مجاهد العامري ملك دانية ليستفح به الناس، فوافق العامري على فكرته وأجزل له العطاء، وفضل الشَّقْندي ملوك إشبيلية بني عباد على كل ملوك الطوائف، ووضح ما كان في مملكتهم من حضارة زاخرة، كان فيها بنو عباد وبنوهم ووزراؤهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر، ومشاركين في فنون العلم، وأثارهم مذكورة، وأخبارهم مشهورة، وهنا يقارنهم بملوك برّ العدو، ومنهم يوسف بن تاشفين الذي لا يفهم العربية جيداً ولا يفهم المقصود بالشعر.

٢ - المفاضلة بالعلماء: ويبدأ باستعراض أسماء علماء يباهي بهم برّ العدو في اختصاصات مختلفة: الفقه والفلسفة والشريعة والحفظ واللغة والنحو وعلوم اللحن والفلسفة والنجوم والهندسة، وبعض هؤلاء العلماء كانوا من الملوك المتقنين لعدد من العلوم كالمقتدر ابن هود صاحب سرقسطة، وفي الطب وعلم التاريخ وعلم الأدب (كتاب العقود)، والاعتناء بتخليد فضائل الأقاليم (وهو كتاب الذخيرة) وبلاغة النثر (القلائد) والترسيل والخطب، وهنا يخص المعتمد بعلم الشعر وابنه الرازي مع نماذج من شعرهم، وكذلك تحدث عن ملك ألف في فنون الآداب وهو المظفر بن الأفطس، الذي لم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب.

٣ - الشعراء ونماذج من شعرهم: حيث ذكر مقطعات منتخبة في معانيها وأسلوبها ولفظها لأعلام الشعر الأندلسي؛ كابن عمار وابن زيدون وابن وهبون والقسطلي الذي قرنه الثعالبي في الأندلس بالمتنبي في المشرق خاصة في قصيدته الرائية المشهورة في المديح، وهنا يورد ثلاثة عشر بيتاً من هذه القصيدة مع تفضيلها ونقدها، ويذكر أبياتاً أخرى له في معاني الغربة عن الأوطان والتشبيه، ويتحول إلى أبي فرج الجياني وأبياته المشهورة في العفة، ثم يختار مجاميع أبيات في تشبيهات مختلفة: العارض والليل والخمرة.

٤ - أخذ المعاني: لم يكتف الشَّقْندي بمفاضلة الأندلسيين على غيرهم من الأقوام، لكنه هنا دخل مدخلاً غريباً حيث أباح للأندلسيين أخذ المعنى من شعراء آخرين مشهورين، أو بالأحرى أخذ معاني أبيات مشهورة في الأدب العربي، وهو هنا يبين كيف أبدع هؤلاء

الأندلسيون في الآيات التي أخذوها من شعراء العرب المعروفين، وقدموها بمقطوعات جميلة، ويبدأ بمعنى السعي إلى المحبوبة ويستخدم لذلك المصطلحات التالية:

أ- الاختلاس: اختلاس النسيم لنفحة الأزهار.

ب- الاستلاب: الاستلاب اللطيف.

ج- التناول.

د- النقل.

وبذلك يستعرض من أخذ هذا المعنى في المشرق والأندلس، وينقده نقداً أدبياً في مستوى الإحسان أو الإساءة، خاصة المشاركة من الشعراء.

٥- بيان براعة الأندلسيين في تشبيهات مألوفة: يختار الشُّقْنُدي تشبيهات معروفة قد ملتها الأسماح، كتشبيه الثغر بالأقحاح، والزهر بالنجوم، والحدود بالشقائق، فجاء الأندلسيون وتلطفوا في هذه التشبيهات، فجعلوها جديدة، مستخدماً المصطلحات: التلطف، المنزع، الجدة، الإغراب، المزاحمة، السبق، حيث أورد ثلاثة نماذج من شعر ابن الرقاق.

٦- براعة الأندلسيين في أوصاف الرياض والمياه: وذكر سبق ابن خفاجة وفضح الآخرين أن لحقوا به، ويورد نماذج شعرية عديدة في أوصاف الطبيعة، والنهر، والروض، والغمام، والساقى، والغرس، ويورد شعراً لابن بسام في المنادمة، وللرصاصي البلنسي في صفة تغلب الظلام على الأصيل، ولغيره في وصف الخال، وفي أوصاف أخرى يرى أن الشاعر الأندلسي اهتدى إليها دون غيره.

٧- براعة الأندلسيين في أغراض متنوعة: وهو الإتيان بمعانٍ في الهجاء دون إقذاع، كقول المخزومي، وبراء أيضاً قد أبدع في الإقذاع وفي المديح حين يبلغ النهاية فيه، ثم ينقله إلى الهجاء فيبلغ فيه الغاية من الذم، ومن صفات الهجاء المختارة: هجاء أشر العين، والجاحد، والفاضل، ووصف [في] الأعمى ذهاب بصره وسواد شعره، ونماذج أخرى للتطيلي وابن هانيء أبدعا فيها.

٨- براعة النساء الأندلسيات في شعرهم: كولادة وزينب بنت المؤدب.

٩- أنهى قطعه المتميزة بأقوال أخرى: بحيث أن كل من ينكر الأصالة في الأندلس يقرأ رسالة الشُّقْنُدي في فضائل أهلها بالعلوم والفنون كافة، تجده يغير فكره ورأيه ويقر بأصالة الأندلسيين، هنا يقول: إنه أطال رسالته وردده، ويكفيه أنه استدل على النهار بالصباح، وهنا يسأل أصحاب برّ العدو: من شاعركم الذي تقابلون به شاعراً واحداً ممن ذكر؟ ويرد على نفسه: لا أعرف لكم أشهر ذكراً وأضخم شعراً من أبي العباس الجراوي، ويقول: إنه أولى لكم نسيان فضله، ويستشهد ببنت ينقده له ويرده عليه، ويظهر أخطائه في استخدام الألفاظ مع التجريح بالشاعر.

١٠- حكايات عن تفوق الأندلسيين: أولها الافتخار بالفرسان والشجعان، فيذكر في مدة

المنصور بن أبي عامر الأمير ابن مردنيش الذي يروي عنه قصة شجاعته وانتصاره في الحرب. والناحية الأخرى التي يفاخر فيها هي كرم النفس وشمائل الرياسة، ويروي حكاية يُتعجب منها لذلك حدثت في عصره مما يدل على أنه شهد ما يحكي عنه.

ويتحدث أيضاً عن البلاد وتفسير محاسنها وما خصها الله تعالى به مما حرمها غيرها، فيتناول ذكر إشبيلية وما تتمتع به من أنهار وهواء معتدل وحسن مبان، ويذكر رواية عن تفضيلها على مصر والشام، ويستمر في تعداد ما فيها من أثمار نادرة، وآلات طرب متنوعة ومراكب وسفن ومطابخ ومياه وأشجار متكاثفة، وعلماء وشعراء وشاحين وزجالين، وجعل إشبيلية أكبر مدن الأندلس وأعظم أمصارها.

ومن بلاد الأندلس الأخرى «قرطبة» كرسى المملكة في الدولة المروانية، مركز العلم ومنار التقى، بها استقرت ملوك الفتح وعظماؤه، ثم الملوك المروانية، بها كان علماء الشريعة والملوك يتواضعون لعلمائها، ويروي قصصاً عن ذلك، والمُقدم للفتوى يطول اختباره، وفيه مواصفات معينة، وهم أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية ووضح ظروف بناء قرطبة والزاهرة والزهراء.

والمدينة الأخرى جيان ويعدها للأندلس قلعة، إذ أنها [أخصبها] زرعاً، وأصرمها أبطالاً، مشهورة بالزعران والكروم.

وتعد غرناطة دمشق بلاد الأندلس، لها القصة المنيعة ذات الأسوار الشامخة، واختصت بكون النهر يتوزع على ديارها وحمّاماتها وأسواقها وأرحاها الداخلة والخارجة وبساتينها، وشهرت بنسيمها الرائق، وبأشرافها وعلمائها وشعرائها وشواعرها (نزهون القلاعية، وزينب بنت زياد، وحفصة بنت الحاج)، وقد شهرت بظرفها في الجواب، ومالقة التي جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة والبروج وتحلل الوادي الزائر لها، وتميزت بتينها الري لأن اسمها في القديم رية.

والمرية هي البلد المشهور الذكر، خصّ أهله باعتدال المزاج، ورونق الديباج، ساحلها أنظف السواحل وأشرحها وأملحها منظراً، وهي متوسطة ومتسعة، قائمة بالوارد والصادر، وهي مصنع للحلل الموشية النفيسة، وفيها الحصى الملون العجيب الذي يستخدمه رؤساء مراكش.

ومرسية حاضرة شرق الأندلس، ولأهلها صرامة وإباء معروف ومشهور، وواديها قسيم وادي إشبيلية، كلهما ينبع من شقورة وعليه البساتين المتهدبة الأغصان، والنواعير والأطيار والأزهار، واختصت بصناعة البُسط والخُصر التي تغلّف بها الحيطان.

وبلنسية مختصة ببساتينها وتعرف بمطيب الأندلس، فيها البحيرة المشهورة، ورسافتها من أحسن متفرجات الأرض، فيها البحيرة المشهورة، ويقال: إنها لمواجهة الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بلنسية، واختصت بالنسيج البلنسي.

واختصت جزيرة ميورقة بخصوبة الأرض، وكثرة الزرع والرزق والماشية، وفيها الحضارة الوارفة والفضلاء والأبطال.

وينتهي الشَّقْنُدي رسالته هذه، ويوضح أنه ذكر الممالك المستقلة منها فقط، أما علماءها وشعراؤها فإنه اقتصر على المشهورين منهم، وختم كلامه بحكاية جرت له عن قيمة شعراء الأندلس وكتابتها وعلمائها.

### اهتمام الأدباء المعاصرين برسائل فضائل أهل الأندلس:

أورد الأستاذ زكي مبارك نصوصاً من رسالة الشَّقْنُدي تخص ما جاء عن الشعر والشعراء في كتابه الموازنة بين الشعراء، ورأى فيها ثمرة لما كان من التنافس بين قرطبة وبغداد، ولينشر «صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب في الأندلس»<sup>(١)</sup> وعندما أنهى نصوصه المختارة بيّن أنه ذكر ليمهد لدرس قصيدة ابن دراج الرائية في معارضة قصيدة أبي نواس في مدح الخصب<sup>(٢)</sup>.

كما قسّم الدكتور مصطفى الشكعة رسالة الشَّقْنُدي إلى قسمين:

الأول: عدّه «قطعة أدبية بارعة النسيج، مشرقة الأسلوب، موصولة القضايا، مترابطة الأحكام»<sup>(٣)</sup>، ويشمل هذا القسم الاختيارات الشعرية الجميلة التي شملت العديد من الأغراض: من مديح ووصف وغزل وخمر ولعب وجد وعبث وزهد، خرج منها بالكثير من المقطوعات الشعرية التي نظمها الأندلسيون.

القسم الثاني: سار فيه الشَّقْنُدي نهج الجغرافيين والرحالة، ووصف ثمانى مدن أندلسية وجزيرة، كانت إشبيلية مدينة الشَّقْنُدي ودار إقامته أبرزها، وكان أسلوبه - كما رأينا من عرض الرسالة - معتمداً على سرد الحقائق من حياة اجتماعية وميزات اقتصادية وأنماط وسلوك وسبل حياة، وفضائل تميز به الناس عن غيرهم، ومزايا توفرت في مدينة دون أخرى<sup>(٤)</sup>.

لذلك لا نستغرب كثيراً ذلك الأسلوب المصنوع المسجوع الذي وشى به الكاتب رسالته لأنه يتماشى مع طبيعة عصره الذي سادت فيه مدرسة القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) الموعلة في صناعة النشر.

وإذا ما قارنا بين رسالتي الشَّقْنُدي، وابن حزم نرى الأولى أكثر طولاً، وأغنى أدباً، وأوفر ثروة بالروح الأدبية من رسالة ابن حزم، حين يعدد عظماء الأندلس: ملوكهم، حكامهم، أدباءهم، ويهتم بالموهوبين منهم، ويجعل أعمالهم أسباباً وجيهة للفخر، ويستشهد

(١) الموازنة بين الشعراء: زكي مبارك، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٣٦، ٢٥٣.

(٢) م. ن ٢٦٧.

(٣) الأدب الأندلسي: ٦٣٥.

(٤) م. ن ٦٣٥.

بالمتميز من أشعارهم في كل مجال، صادراً عن روح أدبية أصيلة، وسياق عذب التسلسل دفاق المعاني، مع تعليقات لطيفة لا تخلو من نقذات تجمل روح التحدي<sup>(١)</sup>.

وأكد الأستاذ جعفر ماجد اهتمام كتاب الرسائل بقوميتهم، فقد كتب دراسة عن العلاقات بين قرطبة والقيروان تعرّض فيها لرسائل فضائل أهل الأندلس، ورأى أن القيروان كانت مرحلة ضرورية في رحلة الأندلسيين إليها لطلب العلم بعد المشرق (مهد الحضارة)<sup>(٢)</sup>.

كما عزا عقدة التفاضل بين الأندلسيين وغيرهم إلى وصول أبي علي القالي إلى الأندلس حيث كانت بوابة ظهور النزعة الاستقلالية - في مجال الأدب - ثم قويت في القرن الخامس والقرن السادس، ولأن هذه العقدة كانت مهينة للمفاضلة التي ستقع بين الأندلسيين والقيروانيين<sup>(٣)</sup>. وما تحرك الخصومة بين أهل الأندلس وأهل القيروان إلا بسبب رسالة ابن الربيب القيرواني التي وجهها إلى أبي المغيرة بن حزم يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم، حيث تؤكد الرسالة متانة العلاقات الثقافية بين قرطبة والقيروان، من خلال قطع ابن الربيب سبيل الاعتذار ببعده المسافة وعدم وصول الكتب الأندلسية إلى القيروانيين، ولكن إلى جانب ذلك نجد اعتزاز ابن الربيب بما ألفه علماء القيروان وأدباؤهم، واستغراب سكوت الأندلسيين عن فضائل بلادهم ومآثر أهلها، وهو هنا يعترف بقيمة مواطنهم، وما سماه هنري بيرس (القومية الأدبية) التي وجدت في القيروان قبل الأندلس، خاصة وأنه يعيب على ابن عبد ربه أنه (لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده).

فكانت رسالة ابن الربيب مثار ردود عنيفة وحادة، أكدت المنافسة الثقافية بين قرطبة والقيروان، فاستمرت هذه الردود وانتقلت إلى كتاب رسائل المفاضلة الآخرين: أبي محمد بن حزم، وابن سعيد والشّقْندِي، فقد بدأ ابن حزم بمهاجمة القيروانيين حين أنكر أن تكون لهم تآليف ونسب ابن هانيء الإفريقي إلى الأندلس وغيرها، أما تذييل ابن سعيد فلم يبلغ حماس رسالة ابن حزم، لكنه أكد فيه تأثير بعض الأندلسيين بمدرسة القيروان الأدبية. أما الشّقْندِي فكان أكثر تعصباً من سابقه، وردّه يبرز حدة الصراع بين أهل الأندلس وبرز العدو حين أعماه التعصب وأخرجه عن سجيته<sup>(٤)</sup>.

نلاحظ مما سبق حب الأندلسيين لبلادهم وشدة تعلقهم بها، وحرصهم على المباهاة بها وبأهلها، وتميزها على غيرها من البلاد.

(١) الأدب الأندلسي ٦٢٠-٦٢١.

(٢) العلاقات الأدبية بين قرطبة والقيروان في القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة. الأستاذ جعفر ماجد، حوليات الجامعة التونسية، ع ١٣، ١٩٧٦، ص ١٠٧.

(٣) م. ن. ١٠٨.

(٤) م. ن. ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٥.

## المصادر والمراجع

- ابن بسام وكتابه الذخيرة: د. حسين يوسف خريوش، عمان، دار الفكر، ١٩٨٤.
- الإحاطة في أخبار غرناطة: الذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، الطبعة الأولى، ٤ مجلدات، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م - ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- اختصار القدح المعلى: لابن سعيد، تحقيق: إبراهيم الإياري، ط ٢، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠.
- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: د. مصطفى الشكعة، ط ٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.
- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧ هـ، د. منجد مصطفى بهجت، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- أعمال الأعلام (تاريخ إسبانيا المسلمة)، لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ)، تحقيق: ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، ١٩٦٥ م.
- بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، للضبي (ت ٥٩٩هـ)، تحقيق: إبراهيم الإياري، المكتبة الأندلسية ١٤، ١٥، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري واللبناني، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.
- تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة: د. إحسان عباس، ط ٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٩ م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، ٨ مجلدات، بيروت، دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ)، السفر الخامس، قسمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥ م.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، لابن سعيد (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق عبد المتعال القاضي، القاهرة، مطابع الأهرام، ١٩٧٣ م.
- رسالة ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١ م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)، بيروت، المكتبة التجارية، د. ت.

- الصلة: لابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ)، تحقيق: إبراهيم الإبياري، المكتبة الأندلسية ١١، ١٢، ١٣، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري واللبناني، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م.
- العلاقات الأدبية بين قرطبة والقيروان في القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة: جعفر ماجد، حوليات الجامعة التونسية، العدد ١٣، ١٩٧٦ م.
- فضائل الأندلس وأهلها، د. صلاح الدين المنجد، بيروت، ١٩٦٨ م.
- فهرسة ابن خير الأموي الأشبيلي (ت ٥٧٥ هـ)، تحقيق: إبراهيم الإبياري، المكتبة الأندلسية، ٩، ١٠، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري واللبناني، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م.
- فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، د.ت.
- مسالك الأبصار: لابن فضل الله العمري.
- المطرب من أشعار أهل المغرب: لأبي الخطاب عمر بن حسن بن دحية (ت ٦٣٣ هـ)، تحقيق: إبراهيم الإبياري وآخرون، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٤ م.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي (ت: ٦٤٧ هـ)، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٢٨٣ هـ / ١٩٦٣ م.
- المغرب في حلى المغرب: لابن سعيد (ت: ٦٨٥ هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، ط ٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤ م.
- الموازنة بين الشعراء: زكي مبارك، ط ٢، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٣٦ م.
- نص أندلسي جديد (قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب)، تحقيق: د. لطفي عبد البديع، القاهرة، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، ١٩٥٥ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: لأحمد بن محمد المقرئ (ت ١٠٤١ هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، ثمانية مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨ م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت: ٦٨١ هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧١ م.

## ابن ملكون النحوي

من خلال مخطوط

## «إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهم»

الأستاذ محمد الجيري(\*)

من هو ابن ملكون؟

لا تكاد كتب التراجم تخرج عما قاله ابن الأبار في تحديد هوية صاحبه. فهو إبراهيم بن محمد بن منذر بن أحمد بن سعيد بن ملكون - بضم الميم - الحضرمي الإشبيلي، يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن ملكون<sup>(١)</sup>.

غير أن صاحب «الذيل والتكملة» قد زاد في شجرة نسب ابن ملكون جداً خامساً، حيث قال في ترجمة عبد الملك بن هارون بن يحيى الجمحي: «روى عن أبي إسحاق بن محمد بن محمد بن ملكون»<sup>(٢)</sup>.

إن هذه الزيادة في سلسلة نسب ابن ملكون تجعلنا نقف موقف الحيرة والتردد في إثبات هذه الزيادة أو حذفها، خصوصاً إذا علمنا أن ابن عبد الملك ثقة ثبت في نقل الروايات والأسانيد، فما بالك بسلسلة الأنساب التي أبان عن علو كعبه في تحقيقه منها في أسفار «الذيل والتكملة».

أما صاحب «المعجب» فقد سمى أباه بعبد الملك عند حديثه عن صفات أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، إذ ذكر أنه لقي بإشبيلية «رجالاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن منهم الأستاذ اللغوي المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون»<sup>(٣)</sup>.

لكن «محمد» الذي جعله ابن عبد الملك جداً أولاً لابن ملكون، و«عبد الملك» الذي جعله عبد الواحد المراكشي أباً له، لم نجدتهما عند ابن الأبار - وهو قريب العهد بعصر صاحبه - ولا عند المتأخرين ممن نظن أنهم استقوا مادة ترجمتهم به منه.

\* باحث بالدراسات المعمقة - المغرب.

(١) التكملة ١٣٥/١ رقم ٤٠٦، وإنباه الرواة ١٩٦/٤ رقم ٩٧٦، وبغية الوعاة ٤٣١/١ رقم ٨٧٢، وإشارة

التعيين ١٨، ومعجم المؤلفين ١٠٨/١، والأعلام ٦٢/١.

(٢) الذيل ٥١/١/٥.

(٣) المعجب ص ٣٤٦.



أما عن كنيته، فقد نص ابن عبد الملك عند ترجمته بيد بن إبراهيم بن يوسف أنه قد «أخذ عنه بإشبيلية [أبوا بكر]: ابن ملكون وابن مروان بن القانة»<sup>(١)</sup>. فالكنية التي وضعها المحقق بين معقوفتين إما أن يكون قد أضافها من نص آخر، أو وضعها باجتهاد منه، وفي كلا الحالتين نعتبر هذه الإضافة خلطاً ووهماً من المحقق، لأن جميع المصادر التي ترجمت لابن ملكون، وكذا المصادر القديمة التي وردت فيها كنيته عرضاً - بما في ذلك الذيل والتكملة - لم تشر إلى هذه الكنية، بل اتفقت جميعها على أنه أبو إسحاق.

وتبقى ملاحظة تتعلق بما اشتهر به صاحبنا. فقد اختلفت المصادر بين ضم ميم ابن ملكون أو فتحها<sup>(٢)</sup>. وباستقصاء هذه المصادر نرى أن «التكملة» و«الذيل والتكملة» وهما أوفيان مصدرين ورد فيهما ذكر ابن ملكون قد جاء فيهما بضم الميم فحسب. هذا، علاوة على أن الرعيني نفسه نجده مرة يورده بضم الميم، وتارة بفتحها. وبالضم ضبط أيضاً في «المعجب»، وعلى الصفحة الأولى من نسخة الأسكوريال، وفي كتاب «الإعلام» لابن قاضي شعبة كما يقول الزركلي<sup>(٣)</sup>. ولعل في هذا الاتفاق بين هذه المصادر ما نستند إليه كحجة قوية في ترجيح اشتهاار صاحبنا بضم ميم ملكون أكثر من فتحها.

وإذا كانت المصادر التي ترجمت لابن ملكون قد حددت سنة لوفاته، فإنها بالمقابل قد سكتت عن تحديد سنة مولده، لكن هذا لا يمنعنا من الاعتماد على ما يمكن أن يهدينا إلى تحديد تاريخ تقريبي لسنة ميلاده.

قال السيوطي في ترجمة محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجد الإشبيلي: «قال ابن الزبير: من عليّة أعيانها، أخذ كتاب سيبويه عن ابن الأخضر وأحكمه، ومهر في فهم أغراضه وغوامضه، فكان من أجل أصحاب ابن الأخضر، حتى قال فيه ابن ملكون، وهو من أقرانه: من قرأ كتاب سيبويه على ابن الجد فما عليه ألا يقرأه على سيبويه»<sup>(٤)</sup>.

فالذي يهمننا مما أورده السيوطي في ترجمة ابن الجد هو عبارة: «وهو من أقرانه» فقد جاء في أساس البلاغة: «القرن بالفتح: مثلك في السن»<sup>(٥)</sup>. وفي «اللسان»: «تقول: على قرني أي على سني»<sup>(٦)</sup>. ونفس المعنى نجده في «القاموس المحيط»: «وهو على قرني على سني وعمري كالقرين»<sup>(٧)</sup>.

(١) الذيل ٤٢١/٢/٨.

(٢) انظر في فتح ميم ابن ملكون: برنامج شيوخ الرعيني ص ٧٩ - ٨١ - ٨٣. وبغية الوعاة ٢٥/٢ - ٨٤ - ٣٦٢. وانظر في ضم الميم: الصفحة الأولى من نسخة الأسكوريال، والمعجب ٣٤٦، والتكملة ٥٨/٢، و٤٦/٣ - ١٥٩، وبرنامج شيوخ الرعيني ص ٩٢ - ٩٨ - ٩٩ والذيل ١٨١/١/٥، و٢٣٥/٦ - ٥١٠.

(٣) الإعلام ٦٢/١.

(٤) بغية الوعاة ٢٥/٢ رقم ١٣٤.

(٥) أساس البلاغة ص ٥٠٤.

(٦) اللسان (قرن).

(٧) القاموس المحيط ٢٥٩/٤ (قرن).

إن في هذا الاتفاق بين المعاجم حول مفهوم القرن ما يكفي لاعتبار ابن ملكون مثل ابن الجد في السن والعمر. وإذا علمنا أن ابن الجد قد ولد سنة ٤٩٦ هـ كما نص على ذلك ابن عبد الملك<sup>(١)</sup>، فإن ابن ملكون سيكون من مواليد النصف الثاني من العقد التاسع من القرن الخامس الهجري، بل يمكن أن نذهب إلى أنه ولد في السنة التي ولد فيها ابن الجد.

اختلفت روايات المترجمين لابن ملكون في تحديد سنة وفاته على ثلاثة أوجه:

أ - حكى ابن الأبار<sup>(٢)</sup> روايتين اثنتين في تاريخ وفاة ابن ملكون، نقل الأولى عن أبي سليمان بن حوط الله الذي قال: «توفي بإشيلية سنة إحدى وثمانين وخمس مئة (٥٨١ هـ)». ونقل الثانية عن أبي علي بن الشلوين الذي قال: «إنه توفي في شوال سنة ثمانين ودفن بداره».

ب - وروى السيوطي أنه «مات سنة أربع وثمانين وخمس مئة»<sup>(٣)</sup>. وهي السنة نفسها التي أشار إليها رضا كحالة في معجمه<sup>(٤)</sup>.

ج - وحدد الزركلي<sup>(٥)</sup> وفاته في سنة ٥٨١ هـ، وأظنه نقلها عن ابن قاضي شعبة كما أثبت ذلك في الحاشية.

وأمام الاختلاف في هذه الروايات الثلاث ينتاب الدارس التردد والحيرة في تحديد سنة معينة لوفاة ابن ملكون. فإذا ذهبنا إلى القول بسنة ٥٨١ هـ تاريخاً لوفاة صاحبنا كما ذكر ذلك أبو سليمان بن حوط الله - وهو المعروف بالنزاهة والعدل والاعتدال<sup>(٦)</sup> -، وهي السنة نفسها التي أثبتتها ابن قاضي شعبة خلال ترجمته لوفيات ٥٨١ هـ كما ذكر ذلك الزركلي، تستوقفنا مرة أخرى عبارة السيوطي التي اعتمدنا عليها في تحديد سنة ميلاد ابن ملكون، وهي كونه قريباً لابن الجد، وهذا الأخير كما ذكر صاحب «الذيل والتكملة»<sup>(٧)</sup> توفي سنة ٥٨٤ هـ. وأظن هذه العبارة هي التي بنى عليها السيوطي نفسه تاريخ وفاة ابن ملكون في ترجمته له. أما رضا كحالة فلا أستبعد أن يكون نقل السنة التي حددها لوفاة ابن ملكون عن السيوطي. أما ما قاله أبو علي بن الشلوين، فهو مردود لعدم وجود ما يعضده.

ومرة أخرى نجد أنفسنا في موقف لا نستطيع أن نرجح فيه رأياً على آخر. فإذا دحضنا ما أثبتته السيوطي، فإننا سنقوض ما بنيناه تاريخاً افتراضياً لميلاد ابن ملكون. وإذا رددنا ما ذهب إليه أبو سليمان بن حوط الله، فإننا سنطعن في نزاهته وعدله واعتداله، وذلك ما أبرء نفسي منه.

لذا، وتجنباً للزلل الذي يمكن أن تقع فيه، نقول: إن ابن ملكون قد توفي في النصف لأول من العقد الثامن من القرن السادس الهجري.

(١) الذيل ٣٢٦/٦.

(٢) التكملة ١٣٥/١.

(٣) بغية الوعاة ٤٣١/١.

(٤) معجم المؤلفين ١٠٨/١.

(٥) الأعلام ٦٢/١.

(٦) التكملة ٢٥٧/١.

(٧) الذيل ٣٢٦/٦.

**مؤلفاته:**

قال أبو علي الشلوبين معقباً على كلام أستاذه فيما ذهب إليه من تنازع العاملين في قول امرئ القيس:

كفاني ولم أطلب قليل من المال  
«إني لأستطرف أن يكون هذا من كلام الأستاذ رحمه الله، لأنني لم أسمع قط ذكره ولا كتبه في التواليف التي أخرجها ورويت عنه»<sup>(١)</sup>.

ومن التآليف التي رواها المتتوري عن شيوخه في فهرسته «تآليف الأستاذ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن منذر بن سعيد بن ملكون الحضرمي الإشبيلي»، قال: «حدثني بها القاضي أبو بكر بن جزى عن الوزير أبي عبد الله بن ربيع»<sup>(٢)</sup>.

فلا شك أن ابن ملكون قد ترك جملة من المؤلفات التي رويت عنه واستفاد منها لاحقوه من العلماء. غير أنه إذا كان الآخذون عنه قد أغفلوا الإشارة إلى مصنفاته التي نقلوا عنها، فإن كتب التراجم قد احتفظت لنا بعناوين بعضها، وهي عناوين تبرز اهتمام ابن ملكون بالنحو واللغة. ولما لم نستطع الوقوف على آثاره - عدا الكتاب الذي بين أيدينا - حتى نهتدي إلى ترتيبها زمنياً، فقد أثرنا أن نرتبها بحسب الحروف الأبجدية:

١ - «إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج»<sup>(٣)</sup>، وهو الكتاب الذي عليه مدار القول في بحثنا هذا.

٢ - «شرح الجمل للزجاجي»<sup>(٤)</sup>.

٣ - «شرح الحماسة لأبي تمام»<sup>(٥)</sup>.

٤ - «النكت على تبصرة الصميري»<sup>(٦)</sup>.

**كتاب «إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج»****عنوانه:**

إن أقدم مصدر ورد فيه كتاب ابن ملكون هو كتاب «التكملة لكتاب الصلة»، حيث قال ابن الأبار وهو بصدد الترجمة بصاحبه: «ومن تأليفه إيضاح المنهج، جمع فيه بين كتابي ابن جني على الحماسة: التنبيه والمبهج»<sup>(٧)</sup>.

وبنفس العبارة - مع اختلاف بسيط في ترتيب الألفاظ - ذكره صاحب «الأعلام»، فقال:

- (١) إيضاح المنهج ص ٥٩.
- (٢) فهرسة المتتوري ١٩٢ ط.
- (٣) التكملة ١٣٥/١، ومعجم المؤلفين ١٠٨/١، وإشارة التبيين ١٨، والأعلام ٦٢/١.
- (٤) التكملة ١٣٥/١، وإشارة التبيين ١٨، والأعلام ٦٢.
- (٥) بغية الرعاة ٤٣١/١، ومعجم المؤلفين ١٠٨/١.
- (٦) حاشية الإنباه ١٢٣/٢، والتكملة ١٣٥/١، وبغية الرعاة ٤٣١/١، وإشارة التبيين ١٨، ومعجم المؤلفين ١٠٨/١.
- (٧) التكملة ١٣٥/١.

«من كتبه إيضاح المنهج في دار الكتب مصوراً عن الأسكوريال (٣١٢) جمع فيه بين كتابي ابن جني - التنبيه والمبهج - على الحماسة»<sup>(١)</sup>.

وأورده رضا كحالة بصيغة لا تختلف كثيراً عن الصيغتين السابقتين إلا من حيث كونها توحى بالعنوان الكامل للكتاب، قال: «من مؤلفاته: إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج لابن جني»<sup>(٢)</sup>.

وبنفس التسمية وُسم على اللوحة الأولى من نسخة الأسكوريال، حيث جاء فيها: «كتاب إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج لأبي الفتح بن جني، مما عني بجمعه الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي اللغوي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن منذر بن ملكون الحضرمي رضي الله عنه، بتتبع عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي وإصلاحه رحمهم الله أجمعين بفضلته ومنه»<sup>(٣)</sup>.

أما في النسخة الحمزاوية فقد ورد العنوان كاملاً منسوباً لعبد المهيمن الحضرمي<sup>(٤)</sup>، حيث جاء في اللوحة الأولى منها: «كتاب إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج من تأليف العلامة عبد المهيمن الحضرمي»<sup>(٥)</sup>. والحقيقة أن عبد المهيمن هذا ليس هو مؤلف الكتاب، وإنما هو الذي أضاف إليه استلحاقيات واستدراكات وتعقيبات أبي علي الشلوبين على أستاذه ابن ملكون، «فصير ذلك ديواناً واحداً لتكمل به الفائدة»<sup>(٦)</sup>.

من هنا نخلص إلى القول: إن اسم الكتاب الكامل هو «إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج»، ولعل ما يؤكد هذه التسمية ما أشار إليه ابن ملكون نفسه في المقدمة حيث قال: «هذا كتاب جمعت فيه بين كتابي أبي الفتح عثمان بن جني اللذين كان وضعهما على حماسة أبي تمام حبيب بن أوس»<sup>(٧)</sup>، وهو يقصد بذلك كتاب «المبهج» الذي ضمنه ابن جني تفسير وشرح أسماء شعراء الحماسة، وكتاب «التنبيه» الذي كشف فيه عما في الحماسة من إعراب، وما يلحق به من اشتقاق أو تصريف أو عروض أو قواف، متحامياً شرح أخبارها، أو تفسير شيء من معانيها إلا ما ينعقد عليه الإعراب»<sup>(٨)</sup>.

(١) الأعلام ٦٢/١.

(٢) معجم المؤلفين ١٠٨/١.

(٣) اللوحة الأولى من نسخة الأسكوريال.

(٤) عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي، أبو محمد السبتي، قال فيه صاحب «الإحاطة»: «له القدح المعلن في علم العربية، والمشاركة الحسنة في الأصلين، والإمامة في الحديث، والتبريز في الأدب والتاريخ واللغات والعروض». روى عن أبي جعفر بن الزبير وأبي بكر بن عبيدة وابن رشيد وابن أبي الربيع. وروى عنه ابن زرقون. ولد سنة ٦٧٦ هـ، وتوفي سنة ٧٤٩ هـ. انظر بغية الوعاة ١١٦/٢ رقم ١٥٨٣، والنفع ٥/٢٤٠ - ٤٦٤ رقم ٢٠.

(٥) اللوحة الأولى من نسخة الزاوية الحمزاوية.

(٦) اللوحة الأولى من نسخة الأسكوريال.

(٧) إيضاح المنهج ص ٢.

(٨) شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء المعري ٢٠/١.

## موضوعه:

إن المقدمة التي استهل بها ابن ملكون حديثه تفصح عن مصدرين اثنين جعلهما موضوع كتابه «إيضاح المنهج»، قال: «هذا كتاب جمعت فيه بين كتابي أبي الفتح عثمان بن جني اللذين كان وضعهما عل حماسة أبي تمام حبيب أوس، التي كان أبو إسحاق الزجاج يستكثر أبا تميم، زعم بها. وسمى أبو الفتح أحد هذين الكتابين «المبهم»، ضمنه تفسير ما أمكنه من أسماء شعراء الحماسة، وهو كتاب صغير الحجم، عظيم القدر، كثير النفع. وسمى الكتاب الثاني «النتية»، معظمه الكلام في مشكل إعراب أبيات بأعيانها، وإثارة ما غمض من قوانين المعربين فيها، وربما شاب ذلك بالتكلم في اشتقاق وتصريف وعروض وقواف»<sup>(١)</sup>.

فالموضوع الرئيسي للكتاب منصب على اللغة والنحو بمعناه العام. لكن هذا لم يمنعه من التعرض لبعض قضايا العروض والقوافي والبلاغة. هذا، علاوة على اهتمامه ببعض الأخبار والأنساب<sup>(٢)</sup>.

## ابن ملكون النحوي:

لعل أهم علم عالجه ابن ملكون في كتابه «إيضاح المنهج» هو علم النحو والصرف، وذلك من خلال تعقيبه على ابن جني في ما أورده من كلام على أبيات «النتية»، تارة بالشرح والبيان، وأخرى بالسكوت والاستحسان، وثالثة بالتخطئة والاستهجان. وقد كان في كل ذلك مزوداً بزيادة معرفي كثير، وعلم جم غزير.

ورغم أن أبا علي الشلوبين قد حاول الانتصار لابن جني في أكثر الأحيان، إلا أننا نجده في أحيان أخرى يعترف بعلو قدر أستاذه في هذه الصناعة، ولا أدل على ذلك من تحليلته بالأستاذ، «ولا يلقب أحد ببلاد الأندلس بالأستاذ إلا النحوي الأديب»<sup>(٣)</sup> كما قال القفطي.

١ - فقد تعقب على ابن جني بالشرح والبيان فيما ذهب إليه في بيت الحماسي من أن المنايا بمعنى القدر، «فكانه قال: أومضت إليه أقدار الموت، وبهذه الإضافة يعلم أن الموت غير المنية من حيث كان الشيء لا يضاف إلى نفسه»، قال ابن ملكون: «قلت: إنما لم يصف الشيء إلى نفسه لأن الإضافة حكم موضوع للتخصيص، والشيء لا يخصص نفعه، إنما يخصصه غيره، فلذلك أضيف إلى غيره، ولم يصف إلى نفسه»<sup>(٤)</sup>.

ومما بينه ابن ملكون من كلام ابن جني ما قاله بعد تقدير بيت الحماسي:

وَأَنَا نَرَى أَقْدَامَنَا فِي نَعَالِهِمْ أَتَفْتَأُ بَيْنَ اللَّحَى وَالْحَوَاجِبِ  
قال ابن جني: «أي بين اللحي منهم، وهو قريب من قول الله سبحانه: ﴿جَنَاتُ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]، أي الأبواب منها في كلا التأويلين»، فقال ابن ملكون:

(١) «إيضاح المنهج» ص ٢.

(٢) «إيضاح المنهج» ص ٢٠٩ - ٤٠٧ - ٤٣٦ - ٦٢١ - ٦٨٥.

(٣) إنباء الرواة ١١٣/٤.

(٤) «إيضاح المنهج» ص ٤٢.

«قلت: قول أبي الفتح: في كلا التأويلين، يعني تأويلي رفع الأبواب، وذلك أنه يجوز فيها وجهان: أحدهما، أن تكون الصفة مسندة إليها. والثاني، أن تكون بدلاً من ضمير الجئات، بدل بعض، أو بدل اشتغال، وعلى أي الوجهين كان ارتفاعها، فلا بد من تقدير ضمير راجع إلى الموصوف أو المبدل منه»<sup>(١)</sup>.

وقد وضع ابن ملكون ما أراده ابن جني حين قال: «عقيل: اسم مرتجل، ويمكن أن يكون فعلاً في معنى مفعول»، قال: يريد: يجوز أن يكون منقولاً من الصفة»<sup>(٢)</sup>.

كما شرح ابن ملكون ما عناه ابن جني بقوله: «ولغات الذي والتي كثيراً جداً»، قال: «قلت في الذي أربع لغات: الذي بإثبات الياء، واللذ بحذفها مع الكسر، واللذ بإسكان الذال، وأنشدوا:

كَالَّذِ تَرَبَّى زُبْيَةٌ فَاصْطِيدَا

والذي بتشديد الياء.. وفي التي ثلاث لغات: التي بإثبات الياء، والتت بإسقاط الياء، والتت بإسكان التاء»<sup>(٣)</sup>. وقد زاد ابن الشجري لغتين أخريين في الذي فقال: «والخامسة: استعمالهم «ذا» بمعنى «الذي»، وذلك إذا أوقعوه بعد «ما» الاستفهامية، كقولك: ماذا صنعت؟ وماذا معك؟ تريد: ما الذي صنعت؟ وما الذي معك؟ هذا مذهب سيويه وفاقاً للكوفيين. والسادسة: أن منهم من يقيم مقام الذي «ذو»، ومقام التي «ذات»، وهي لغة طيء، يقولون: زيد ذو قام، وهند ذات قامت»<sup>(٤)</sup>. وذات هذه هي اللغة الرابعة التي زادها ابن الشجري في «التي».

والمستقصي لكتاب «إيضاح المنهج» يرى كثيراً من شروح ابن ملكون على كلام ابن جني لا يسعنا المقام لذكرها، لذا اكتفينا بالوقوف على أمثلة منها.

٢ - ونرى ابن ملكون في كثير من مواضع كتابه لا يتعقب كلام ابن جني بتبيين أو اعتراض، بل يذهب إلى حد استحسان ما جاء به من ظواهر نحوية أو صرفية، يقول مثلاً بعد ذكر كما ذهب إليه ابن جني في عين «عياهم» من أنها بدل من همزة «أياهم»: «هذا الذي ذهب إليه أبو الفتح في عياهم من بدل العين من الهمزة، وأنه كأنه أفاعل من تركيب (ي هم) حسن»، في فصل طويل قال عنه الشلوبين: «هذا كله تميم حسن لمذهب أبي الفتح في عياهم»<sup>(٥)</sup>.

ونجد ابن ملكون يقر بصنعة ابن جني فيما ذهب إليه في «خواتمه» من بيت أبان بن عبدة: بَيْتُ خِفَافٍ مُرْهَقَاتٍ قَوَاطِعٍ لِيَدَاوُدَ فِيهَا أَثَرُهُ وَخَوَاتِمُهُ قال: «قلت: في هذا صنعتان: إحداهما تسمية العين باسم المعنى، والثانية جمعه جمع

(١) المصدر نفسه ص ٧٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١١١.

(٣) إيضاح المنهج ص ٦٥٠ - ٦٥١.

(٤) الأمالي ٥٤/٣.

(٥) إيضاح المنهج ص ٣١.

الصفة كما قال مراعاة لأصله»<sup>(١)</sup>.

٣- ولا يقف ابن ملكون في تعقيباته عند شرح واستحسان كلام ابن جني، وإنما يذهب إلى حد تضعيفه وتخطئته. وفي هذا الصدد نرى أبا علي الشلوبين مرة يسكت على كلام أستاذه، وأخرى يستحسنه ويعضده، وثالثة يعترضه ويرده متحيزاً لآراء ابن جني ومدافعاً عنها.

فمما أغفله أبو الفتح، ونبه إليه ابن ملكون ما زعمه من أنه لا يعلم تركيب (هـ ب ي) قال: «وأما ما زعم أنه لا يعلمه من تركيب (هـ ب ي) فقد مثل به سيبويه في باب الزيادة من غير مواضع حروف الزوائد، فقال: ويكون على فعل، وهو قليل، قالوا: هَيَّ، وهو صفة».

وقد استحسّن الشلوبين هذا التنبيه فقال: «هذه الزيادة التي زادها الأستاذ على أبي الفتح زيادة حسنة صحيحة، غفل أبو الفتح عنها ولا بد، ولم تخطر بخاطره»<sup>(٢)</sup>.

وقد خطأ ابن ملكون ما نقله ابن جني عن أبي علي الفارسي في «كُنَيْتَا» من بيت الكميت:   
وَبِالْفَدَاوَاتِ مُنْشِئًا نَطَارًا وَتَبَعٌ لَا فَصَافِصَ فِي كُنَيْتَا   
قال: «وأما قوله عن أبي علي: حذف لام الكُتَا ثم جمعه بالواو والتون، فظاهره أنه أراد حذف لام الكبا هذا الذي هو جمع كُبَّة، وهي البَعْر، وقيل: المزبلة والكناسة، وهذا لا يحتاج إليه، إنما هو جمع كُبَّة جمعه الكميت بالياء والنون كما جمع ذو الرمة «الْبُرَّة» كذلك في قوله:   
بَيْنَ الْبُرَيْنِ وَأَعْنَاقِ الْعَوَاهِجِ

وقد عضد الشلوبين ما ذهب إليه أستاذه فقال: «ما قاله في الكبين: إنه جمع كبة لا جمع كُتَا على ما ذهب إليه أبو علي صحيح جداً. ولعل أبا علي لم يحفظ كبة، فلذلك قال فيه ما قال، وإلا فقد أخطأ ولا بد»<sup>(٣)</sup>.

وقد أبرز ابن ملكون ضعف ما ذهب إليه ابن جني وشيخه الفارسي في أن خبر كان الناقصة لازم غير مفارق، لأنه عوض من الحدث الذي يدل عليه الفعل مع الزمان، قال: «وهذا القول وإن كان قد توافق عليه هذان الإمامان غير قوي عندي، لأنه لو كان التزام خبر كان كما زعما لكثرة، وحسن حذف خبر ظن، إذ ليس عوضاً من مثل ما عوض منه في باب كان بزعمهما»<sup>(٤)</sup>.

ومن اعتراضات ابن ملكون على ابن جني تبياناه للخلط الذي وقع فيه حينما منع انتصاب «إذا» بما قبلها، قال: «منع أبو الفتح من عمل ما قبل «إذا» فيها، وقد كرر ذلك في غير موضع. وقد أجاز عمل ما قبلها فيها في غير هذا الكتاب. ورأيت الفارسي قد أجاز ذلك في مسألة: «يَنْبُتُكُمْ إِذَا مُرِّتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ» [سبأ: ص]، فقال: لا تكون «إذا» منتصبه الموضع بمزقتم، لاستحالة عمل المضاف إليه في المضاف، وإنما ينتصب بجوانبها، أو بما قبلها، وفي ما قاله نظر». وقد وقف الشلوبين عند نظر أستاذه فقال: «النظر الذي فيه قوله: إنها منتصبه بما قبلها، وليس قبله إلا ينبتكم، والإخبار بذلك لهم، ليس في وقت موتهم، وهذا حق، أعني هذا

(١) المصدر نفسه ص ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٤.

(٣) إيضاح المنهج ص ٢٦٨.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٧.

النظر»<sup>(١)</sup>.

والأمثلة على اعتراضات ابن ملكون كثيرة جداً لا يكاد يخلو منها باب من أبواب الكتاب، لذا اكتفينا بالوقوف على نماذج منها.

وبما أن معظم الكلام في كتاب «إيضاح المنهج» مداره حول مشكل إعراب أبيات «التنبيه» وإثارة ما غمض من قوانين المعربين فيها»<sup>(٢)</sup>، فلا بأس من الوقوف على مثل من الوجوه الإعرابية التي خالف فيها ابن ملكون ابن جني، أو استدرك عليه ما أغفله فيهما.

أ - أشار ابن ملكون إلى جواز رأي آخر في «جالبا» الثاني من قول سعد بن ناشب: سَأَغْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً عَلَيَّ قَضَاءَ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِباً قَالَ: «يجوز أن يكون «جالبا» الثاني توكيداً للأول، وتكون كان تامة، فيتضمن ضمير «ما» ولا يدخل تحت عهدة حذفه». وكان ابن جني قد ذهب إلى أنه «أراد: جالبه، أي جالبا إياه، فحذف الضمير مع اسم الفاعل كما يحذفه مع الفعل نفسه»<sup>(٣)</sup>.

ب - ذكر ابن ملكون ما ذهب إليه ابن جني في «ما» من رواية: «ما لففت» في بيت جحدر: قَدْ عَلِمْتُ وَالِدَتِي مَا ضَمَّتْ وَلَفَفْتُ فَنِي خَرِقِي وَشَمَّتْ قَالَ: «ومن رواه: ما لففت، أبدل ما الثانية من الأولى كقولك: قد عرفت ما عندك ما في ضميرك»، وقال ابن ملكون: «ويجوز أن تكون «ما» الثانية معطوفة على الأولى، وحذف الحرف كما حذفه الآخر في قوله:

كَيْفَ أُمِسَّتْ كَيْفَ أَصْبَحَتْ مَمَّا

ويكون العطف هنا مثله في قول الهذلي:

أَمَّا وَالَّذِي أَبْكِي وَأُضْحِكُ وَالَّذِي أَمَاتَ وَأَحْيَى وَالَّذِي أَمَرَهُ الْأَمْرُ»<sup>(٤)</sup>

ج - حكى ابن ملكون ما جوزه ابن جني في «الباء» من قول الحماسي:

إِذَا مَا قُلُوبُ الْقَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً مِّنَ الْمَوْتِ أَرْسَوْا بِالنَّفُوسِ الْمُوَاجِدِ

قال ابن جني: «يجوز أن تكون الباء حالاً من الضمير في أرسوا، أي أرسوا ونفوسهم معهم... ويجوز أن تكون الباء زائدة، أي أرسوا نفوسهم، معناه أقروها». قال ابن ملكون: «ويجوز أن تكون الباء للتعدية، وتكون الهمزة لا للتعدية، لأنه يقال: رسا وأرسي بمعنى، كسرى وأسرى، فيكون «أرسوا بالنفوس» كقوله: «أسرى بعبده»<sup>(٥)</sup>.

د - ونرى ابن ملكون يحرض على الربط بين الإعراب والمعنى في تجويزه ما منعه ابن جني في «الإغارة»، وما اعتبره في «شدت» غير متعدي من بين الحماسي:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْماً إِذَا رَكِبُوا شَدُّوا الْإِغَارَةَ فَرَسَاناً وَرُكْبَاناً

(١) المصدر نفسه ص ٦٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦.

(٤) إيضاح المنهج ص ٨٢.

(٥) المصدر نفسه ص ١١٤.



قال ابن جني: «ليست «الإغارة» هنا مفعولاً بها، ولا انتصابها على ذلك، ولكن انتصابها انتصاب المفعول له، أي شدوا للإغارة، كقولك: حملوا للإغارة فرسانا وركبانا... وشددت هذه غير متعدية، فإذا أردت تعديتها وصلت بعلی كما قال:

أشدُّ على الكتيبة لا أبالي»

قال ابن ملكون: «ما منعه أبو الفتح من أن تكون «الإغارة» منتصبه انتصاب المفعول غير ممتنع، بل هو جائز على تقديرين: أحدهما على الحقيقة، والثاني على تقدير حذف المضاف، أي جعلوا إغارتهم شديدة لا ضعيفة، أي بالغوا في ما أتوه فيها من قتل وغيره... وإذا بولغ في أسبابها جاز أن توصف هي بتلك المبالغة على الحقيقة لاشتدادها باشتداد أسبابها، فكأنه قال: جعلوا إغارتهم شديدة لشدة أسبابها، وأن يوصف بالشدة على تجوُّز حذف المضاف، أي شدوا أسباب الإغارة، وما يمكن أن يوصف بالشدة مما يتشبث بها، ثم حذف ذلك المفعول حقيقة المضاف إليها لتشبثه بها، فاكستت إعرابه، وعلقت عبارته. وإنما منع أبو الفتح انتصابها على المفعول، لأنه حمل شددت على أحد معنييه الذي هو حملت وعدوت، كقولك: شددنا شدة الليث، دون الثاني الذي هو خلاف أرخيت»<sup>(١)</sup>. وقد أشاد الشلوبين بما أتى به أستاذه فقال: «وقد تتالى الناس بعد أبي الفتح على مثل هذا الذي فعله الأستاذ هنا... إلا أن الأستاذ تفتن في إجازة ذلك أكثر من غيره»<sup>(٢)</sup>.

هـ - ذهب ابن ملكون إلى جواز رأي آخر ما حكاه ابن جني في «أن يمارسا» من بيت سحيل بن سجيح:

ولا يَحْمَدُ القَوْمُ الكِرَامُ أَخَاهُم الـ عَتِيدَ السِّلَاحِ عَنْهُمْ أَنْ يَمَارِسَا  
قال ابن جني: «أراد: في ترك أن يمارسا، فحذف حرف الجر، فصار تقديره: ترك أن يمارسا، ثم حذف المضاف، فصار: أن يمارسا، كقوله:

فَعَجَّلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتُمُونَا

أي مخافة أن تشتمونا». وقال ابن ملكون: «يجوز في «أن يمارسا» غير ما قال، وهو أن يكون محذوفاً منه لا، والتقدير: أن لا يمارسا، ويكون «أن يمارسا» بتقدير البدل من الأخ، أي ولا يحمد القوم الكرام ترك ممارسة أخيه»، ثم أضاف: «ويجوز أن تكون لا في أول البيت زائدة، فإذا قدرتها زائدة لم تحتج إلى تقدير حذفها من يمارس. وأحب أنا أبا علي قد خرج البيت ووجهه على ما ذكرت»<sup>(٣)</sup>، وكأنني باین ملكون من خلال هذا الكلام يريد أن يقول لابن جني: رغم ملازمتك لشيخك أربعين سنة، فإنك لم تطلع على هذا الوجه الذي وجه به بيت الحماسة.

فهذه نماذج ومثل من آراء ابن ملكون الإعرابية مثلت بها للدلالة على ما يزخر به كتاب

(١) إيضاح المنهج ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠٣.

«إيضاح المنهج» من أوجه إعرابية كثيرة، تدل على أنه بارع في علم النحو، مرتق ذروته. إن شخصية ابن ملكون النحوية تبرز من خلال ما ساقه من آراء في تعقيباته واستدراكاته على ابن جني، وهي آراء يمكن رصدها من خلال ما قاله هو نفسه: «وهو الذي يقتضيه القياس عندي»، أو «والوجه عندي»، أو «وأنا أرى فيه»، أو «والقول عندي»، أو «والظاهر فيه عندي»، أو «والأحسن عندي»، ونحو ذلك. غير أنني لا أجزم بانفراد ابن ملكون بتلك الآراء لاعتبارين: - الاعتبار الأول: هو أن الشلوين قد رد معظم تلك الآراء مخطئاً أستاذه، أو متهماً إياه بالغفلة.

- الاعتبار الثاني: هو احتمال وجود تلك الآراء في مصنفات من سبقه من النحاة. وتجتلي شخصيته النحوية أيضاً فيما ذكره النحاة المتأخرون من آراء نسبوها إليه، كأبي علي الشلوين<sup>(١)</sup>، وابن أبي الربيع<sup>(٢)</sup>، والحسن بن قاسم المرادي<sup>(٣)</sup>، وابن هشام الأنصاري<sup>(٤)</sup>، وخالد بن عبد الله الأزهرى<sup>(٥)</sup>، وجلال الدين السيوطي<sup>(٦)</sup>.

### مصادر الدراسة:

#### ١ - المخطوطات:

- «إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهم» - نسخة الزاوية الحمزاوية، مصورة على شريط ميكرو فيلم محفوظ بالخزانة العامة بالرباط المغرب، يحمل رقم ٢٣.
- «إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهم» نسخة مكتبة الأسكوريال، وهي تحمل رقم ٣١٢.
- «فهرست المنتوري» مخطوط بالخزانة الملكية، المغرب، مسجل تحت رقم ١٥٧٨ ك.

#### ٢ - المصادر:

- «أساس البلاغة»، الزمخشري، دار الفكر، بيروت.
- «إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين» عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، تحقيق عبد المجيد دياب، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م، شركة الطباعة العربية، السعودية.
- «الأشباه والنظائر في النحو» للسيوطي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤ م، دار الكتب العلمية بيروت.
- «الأعلام» لخير الدين الزركلي، الطبعة العاشرة ١٩٩٦ م، دار العلم للملايين، بيروت.
- «أمالي ابن الشجري»، تحقيق محمود محمد الطناحي، الطبعة الأولى

(١) «شرح المقدمة الجزولية» ١/ ١٩٦ - ١٩٨ و ٢/ ٦٩٠ - ٦٩١.

(٢) «البيسط في شرح جمل الزجاجي» ١/ ٣٩٢ - ٤٨٢.

(٣) «الجنى الداني في حروف المعاني» ص ٣٠٥.

(٤) «المغني» ١/ ٣٦٨.

(٥) «شرح التصريح على التوضيح» ١/ ٢٠٤ - ٢٦٠ - ٣٧٨ - ٣٧٩ و ٢/ ٢١ - ٩٥ - ١٥٧ - ١٥٨.

(٦) «الأشباه والنظائر» ٢/ ٩٤ و ٣/ ١٩٥ - ١٩٦.

- ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، مطبعة المدني، مصر.
- «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، دار الفكر العربي القاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت.
- «برنامج شيوخ الرعيني»، تحقيق إبراهيم شبوح، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م.
- «التبسيط في شرح جمل الزجاجي» لابن أبي الربيع، تحقيق عياد بن عيد الثبتي، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، دار الفكر، القاهرة.
- «التكملة لكتاب الصلة» لابن الأبار، تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء.
- «الجنى الداني في حروف المعاني» لابن القاسم المرادي، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي، السفر الخامس، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي، السفر السادس، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، تحقيق محمد بن الشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.
- «شرح التصريح على التوضيح» للأزهري، دار الفكر، بيروت.
- «شرح الحماسة» المنسوب لأبي العلاء المعري، تحقيق حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- «شرح المقدمة الجزولية» لأبي علي الشلوبين، تحقيق تركي بن سهو بن نزال العتيبي، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- «القاموس المحيط» للفيروز أبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- «لسان العرب» لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» عبد الواحد المراكشي، ضبطه وصححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة السابعة ١٩٧٨ م، دار الكتاب، الدار البيضاء.
- «معجم المؤلفين» رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- «مغني اللبيب عن كتب الأعراب» لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

## من شعراء الغزل في الأندلس

الدكتورة قدام سعيدة(\*)

### مقدمة:

إن الدارس لشعر الغزل في الأندلس، يجده يصور حياة البلاطات وجانباً من حياة العامة، فقد انشغل الكثير من الأمراء بالحب، وشغفوا بعشق الحرائر والجواري، كعبد الرحمن بن معاوية وشغفه بالدعجاء، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان. وقد عرف الغزل متصلاً بالمرأة التي أسهمت فيه بشكل كبير كمصدر إلهام، أو شاعرة منافسة في الأندية والمجالس الفنية.

وقد كثرت النساء الشاعرات، وأصبحت سيول الغزل تتدفق في كل عصر، نذكر منهم أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح أمير المرية نظمت الشعر والموشحات، وقالت شعر الحب والغزل في الفتى المسمى بالسمار<sup>(١)</sup>. وكانت اعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد شاعرة أدبية. وهناك أم العلاء بنت يوسف الحجازية كانت أدبية شاعرة<sup>(٢)</sup>. ومهجة بنت التيجاني شاعرة مرموقة<sup>(٣)</sup>. وولادة بنت الخليفة المستكفي كانت نهاية في الأدب والظرف وخفة الروح، وقصتها مع ابن زيدون معروفة.

ولعبت الإماء دوراً كبيراً في السيطرة على شعر الغزل، نظراً لكثرتهم واختلاطهن بالرجال في مجالس اللهو والغناء والطرب، نذكر منهن الغسانية البجانية، وهي أدبية شاعرة في بلاط المعتصم، وهناك الشاعرة غاية المنى.

وامتاز شعر الغزل الأندلسي بعذوبة اللفظ وطرافة الصور، ويمكن أن نشير إلى أن ما ظهر منه في المنتديات والمجالس الفنية لم يكن صادق العاطفة، فقد كان ضرباً من القنوع الذي

\* أستاذة في قسم اللغة العربية بجامعة الجزائر.

(١) المغرب ج ٢، ص ٢٠٣/٢٠٢.

(٢) النفع ج ٥/٣٠١.

(٣) المغرب ج ١/١٤٣.

تحدث عنه ابن حزم، فهو براعة ورغبة في التفوق وكد للذهن ولون من الرياضة العقلية، فكان الشعراء يعرضون أغراضهم وكلّ قال على قدر قوة طبعه.

ومن هنا يمكن أن نرصد جملة من أشعار الغزل البعيدة عن هذا القنوع، بل هي أشعار عشق وغرام وكان موجوداً في الواقع. كان الشاعر فيها يصور عاطفته المشبوبة وما يلاقيه من تباريح الهوى، ويصور اللقاء والزيارة، ريتألم عند الصد أو الهجر، ويفرح ويسعد عند اللقاء. وتختلف صور كل شاعر في حرارتها وخيالها وعمقها وقوتها، وهذا ما يمكن أن نعرض إليه من خلال هذا البحث؛ متناولاً ثلاثة شعراء هاموا بفتيات كان لهن أثر في حياتهم، مبتدئاً بابن زيدون وولادة، ثم ابن الحداد ونويرة، وأخيراً بأبي جعفر بن سعيد وحفصة.

### ابن زيدون وولادة

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون<sup>(١)</sup> المخزومي الأندلسي، ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ، في بيت علم وفقه، فهو من بيت حسب ونسب، تلقى تعليمه في قرطبة، ولما تولى أبو الحزم بن جهّور الحكم انتظم في حاشيته. وقد دُسَّ عليه أنه اشترك في مؤامرة ضد أبي الحزم فرجّ به في السجن، وهناك أمور أخرى كانت من ضمن أسباب سجنه. وقد تقلب في بلاط أبي الحزم وبلاط بني عباد. وهام بولادة وأغرم بها وقال فيها أكثر شعره، وهو من أعلام الشعر والنثر، له مدائح في أبي الحزم بن جهّور وابنه أبي الوليد، والمعتضد بن عباد.

ومن نثره نذكر رسالته الهزلية ورسالته الجديدة، وقد تقلد منصب وزير في بلاط بني عباد وهم الذين سموه بذئ الوزارتين، وقد لقب بالبحثري.

### ولادة:

أما ولادة التي ذكرها أبو الوليد بن زيدون في شعره فإنها بنت الخليفة الأموي محمد بن عبد الرحمن الناصري، كانت من أجمل نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها<sup>(٢)</sup>. ويقول ابن بسام بأنها جاهرت بلذاتها، وأطلقت الحرية لحياتها بعد موت أبيها، وكتبت على أحد عاتقي ثوبها: [من الوافر]

أنا والله أصلح للمعالي      وأمشي مشيتي وأتبعه نيهي<sup>(٣)</sup>  
وكتبت على الآخر:

وأمكن عاشقي من صحن خدي      وأعطي قبلتي من يشتهيها

(١) عصر الدول والإمارات ص ٢٨١/٢٨٢. وانظر ترجمته في الذخيرة ج ١ ص ٣٣٦، والمغرب ج ١، ص ٦٣، ودبوانه من تحقيق أكرم البستاني.

(٢) الذخيرة، ج ١، ص ٤٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٢٩/٤٣٠.

وربما كان ابن زيدون واحداً من الذين نالوا قبلتها، فغرق في أجواء سحرها وهام بها.  
فقال: كنت في أيام الشباب وغمرة التصاب هائماً بغادة تدعى ولادة فلما قدّر اللقاء وساعد  
القضاء كتبت إليّ:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي      فإني رأيت الليل أكتسب للسّر<sup>(١)</sup>  
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا      وبالليل ما أجدى وبالنجم لم يسر  
نلاحظ بأنها مقبلة على هذه الزيارة حتى لا يضيع سرها ويقع اللقاء، فيقول ابن زيدون:  
وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور ونقطف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحاً أشدتها  
ارتياحاً:

ودع الصبر محب ودعك      ذائع من سره ما استودعك<sup>(٢)</sup>  
يقرع السن على أن لم يكن      زاد في تلك الخطى إذ شيعك  
ولعله أذاع سرها بهذه الأبيات فكانت بداية التحول فكتب يقول: [من البسيط]

لو كان أمري في كتم الهوى بيدي      ما كان يعلم ما في قلبي البدر<sup>(٣)</sup>  
وأخذ ابن زيدون يديج القصيدة تلو الأخرى، فذاعت أشعاره الغزلية على ألسنة الناس  
وأصبحت كل مناه:

أما مني قلبي فأنت جميعها      يا ليتني أصبحت بعض منك  
وكان في بداية أمره معها - عندما تعرف عليها في منتصفها الذي تقيمه في قرطبة - قانعا  
بالقليل:

سأفنع منك بلحظ البصر      وأرضى بتسليمك المختصر  
ولا أتخطى التماس المنى      ولا أتعدى اختلاس النظر  
أصونك من لحظات الظنون      وأعليك عن خطرات الفكر  
وأحذر من لحظات الرقيب      وقد يستدام الهوى بالحذر  
وسرعان ما تخطى مبدأ القناعة الذي رسمه لنفسه.

ومما زاد في تجهمها أنه ذات يوم في مجلسها غنّت جاريتهما عُتْبة لحناً فأعجب به ابن  
زيدون فسألها الإعادة دون أذن سيدتها، فتجهمت ولادة وزجرت جاريتهما وكتبت إليه قائلة:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا      لم تهو جاريته ولم تتخير<sup>(٤)</sup>  
وتركت غصناً مثمراً بجماله      وجنحت للغصن الذي لم يثمر

(١) الذخيرة، ص ٤٢٩/٤٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٣.

(٤) الذخيرة، ق ١، ص ٤٣١/٤٣٢.

ولقد علمت بأنني بدرُ السما  
وردة عليها قائلاً:  
لكن دُهَيْتَ لشقوتي بالمشتري  
[من الطويل]

وما ضربت عتبي لذنب أثت به  
فقامت تجر الذيل عائرة به  
ولكنما ولادة تشهي ضربتي<sup>(١)</sup>  
وتمسح طلل الدمع بالنعيم الرطب  
ولما حصلت هذه الجفوة بينهما سمحت لعاشق جديد أن يتقرب منها، وقد كان يغشى  
منتداها وهو الوزير ابن عبدوس، ويعلم ابن زيدون بأن منافسه يستخدم في مراسلته إلى ولادة  
امرأة تستميلها إليه وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها في التفرد به، فكتب إلى ابن عبدوس يهدده  
ويتوعده بالانتقام، يقول:

وشمّرت للخوض في لجة  
وغمرتك من عهد ولادة  
هي الموت ساحلها لم يخض  
سرّاب تراءء وبرزق ومض  
هي الماء يابى على قابض  
ويمنع زبدته من مخض  
كما كتب فيه أيضاً رسالته الهزلية ساخطاً متهمكاً ساخراً وأرسلها على لسان ولادة. ومما  
جاء فيها قوله: (أما بعد أيها المصاب بعقله المورط بجعله، البين سقطة الفاحش غلطه، العائر  
في ليل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، والساقط سقوط الذباب على الشراب...) مما أدى  
بولادة إلى هجائه وتلقيه بالمسّس:

ولقيت المسّس وهو نعت  
فلوطي ومأبوء وزان  
تفارقك الحياة ولا يفارق<sup>(٢)</sup>  
وديثوث وقرنان وسارق  
وقالت فيه كلاماً فاحشاً في قصائد أخرى<sup>(٣)</sup>.

وهذه الرسالة كانت من الأسباب التي أدخلته السجن سنة ونصفاً، وهو يستعطف أبا  
الحزم بن جهور ويتودّد إليه بأن يطلق سراحه. ويدّيح رسالته الجدية ولم تُجد شيئاً، ويكتب  
لولادة قصائد تحكي تباريح الجوى وهو يحاول إثبات حبه لها. ويشاء القدر أن يفتر من سجنه  
بمساعدة أبي الوليد بن أبي الحزم، فيقصد بلاط بني عباد الذين أدنوه وأكرموه وغمروه بعطفهم.  
ومن إشبيلية كتب إلى ولادة قصيدته النونية (أضحى التناهي بديلاً) يتذلل ويستعطف، ولكن ولادة  
قد صمّت أذنيها إلى الأبد، وأغلقت قلبها تجاهه لأنها بدأت حياتها مع شخص آخر، ويذهب ابن  
زيدون متخفياً إلى قرطبة قاصداً الزهراء ومنها كتب إليها قصيدته:

إنني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً  
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا<sup>(٤)</sup>  
وعندما ولي الحكم أبو الوليد، قصده فقربه منه واعتمده في السفارة بينه وبين الملوك،

(١) الذخيرة ق ١، ص ٤٣١.

(٢) النفع ٤/ ص ٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(٤) الديوان، ص ٤٦.

ولما أرسله إلى مالقة مكث هناك ثم انتقل إلى بلنسية، ثم عاد إلى بلاط بني عباد بإشبيلية، فولاه المعتضد ابن عباد الوزارة ولقبه بذي الوزارتين، ومكث في بلاطه إلى أن توفي سنة ٤٦٢هـ. وكان في تجواله قد نزل ببطليموس، ومنها كتب قصائد في نزوحه عن بلاده، وصور غربته وتقلبه في الهموم، وقد دامت هجرته عشرين سنة. ونلاحظ بأنه كان في شعره الغزلي يمجّد حبه أكثر من تغزله بولادة ووصف مشاعرها والمحافظة على حبها وأسرارها. مما أثار ضغينتها وراحت تصدّ عنه وتهجوه.

### ابن الحداد ونويرة

من هو ابن الحداد؟

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم المعروف بالحداد<sup>(١)</sup> القيسي، ويلقب بمازن، وقيل اسمه مازن، ولد في وادي آش، إلا أنه استوطن المرية منذ طفولته، وقضى فيها أكثر عمره. وقد لازم بني صمّاح واشتهر بمدح رؤسائهم، ويقال بأنه استقى معظم ثقافته من مطالعته الخاصة للكتب حتى صار أديباً مشهوراً، وله تلاميذ كتبوا على منواله، منهم ابن الصفار من بيت القضاء بقرطبة كان ذا عناية بالأدب، وعبد الله بن عوف.

وقد حظي بمكانة مرموقة عند المعتصم بن صمّاح، أثارت غضب وضغينة حساده فأرادوا الإيقاع به عند ملكه، وقد قال في ذلك: (ولم امتدح المعتصم طالب جدى، ولا راغب ندى على أن جمعينا رائد في رياض إنعامه، ووارد في حياض إكرامه، ولكني مُنِيتُ بقردة حسنة أعجزتهم محاكاتي، فوخزوا فضلي بمثل الأشافي)<sup>(٢)</sup>.

ويقال بأنه كان ناظر الديوان الكبير في بلاط بني صمّاح، أي أنه كان يكتب فيما يكتب فيه الوزير، فيشاركه في التصرف، والديوان الكبير هو ديوان الإنشاء.

وهناك من يقول بأنه كان وزيراً في المرية، والمرجح أنه كان ناظر الديوان الكبير.

وقد رحل إلى مدينة مرسية ثم إلى سرقسطة متخفياً، بسبب مطالبة نالته، لأن أخاه قتل رجلاً وهرب فطالبوه بسببه، فأخفى نفسه مدة إلى أن قبض على أخيه فاستراح وأطمأن على حياته. ثم انتقل إلى المقتدر بن هود فأكرم وفادته، وأقام في كنفه مدة امتدحه كما امتدح ابنه الحاجب المؤتمن<sup>(٣)</sup>. وقد عاد إلى أميره الأول في المرية مرة أخرى، فأكرمه المعتصم وأجزل قراه فقصر أمداحه عليه إلى أن توفي سنة ٤٨٠هـ، وقد كان معاصراً لابن اللبانة والسميسر، وله معهم قصص لا تنم عن حسن معاملة.

(١) الذخيرة ق ١ م ٢، ص ٦٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٢٨.



## حبه لنويرة:

احتل ابن الحداد مكان الصدارة في المرية حتى عدَّ شاعرها في الحب دون منازع، وقد بلغ شعره في الغزل ٢٤ قصيدة مستقلة بذاتها عدا قصائد المديح التي استفتحها بأبيات غزلية. وكل المصادر التي ترجمت له تذكر بأنه أحب فتاة واحدة، استفرغ فيها كل غزله، فتاة نصرانية من مستعربي المرية واسمها (جميلة) فغتره ابن الحداد وسمّاها باسم (نويرة)، ويقول في ذلك ابن بسام: (وكان أبو عبد الله قد مني في صباه بصبيبة نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب، وركب إليها أصعب مركب فصرف نحوها وجهه رضاه، وحكّمها في رأيه وهواه، وكان يسميها نويرة كما فعله الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عن أحبوه، وتغيير اسم من علقوه)<sup>(١)</sup>، وقد أكثر من ذكر اسمها في شعره كقوله:

وارث جفوني من نويرة كاسمها      ناراً تُضِلُّ وكل نار تُرْشِدُ<sup>(٢)</sup>  
والماء أنت وما يصحُّ لقابض      والنار أنت وفي الحشا تتوقّد  
وقال أيضاً:

نويرة بي نويرة لا سواها      ولا شكّ فقد وضح اليقين<sup>(٣)</sup>  
ورمز إليها بأسماء أخرى مثل بُنى وُلُبنى وسُلُمي ومُهدد، لأنه لم يكن يريد التصريح باسمها الحقيقي كقوله في مدح المعتصم:

إذا شئت تنكِلاً وتنكِد عيشة      فحسبك أن تهوى سُلُمي ومُهدد<sup>(٤)</sup>  
وسُلُمي تصغير لسُلُمي وهي اسم امرأة رمز بها لمحبوته، والشاعر يخاطب نفسه قائلاً: إذا أردت أن يستذلّك الحبّ عليك أن تهوى سُلُمي أو مُهدد، فكلتاهما ظالمة مولعة بالصدّ تستلذّ تعذيبك، وهو يشير إلى ما كان يعانيه من نويرة.

وقال يكتني عنها أيضاً:

روئيدك ذا وادي لُبَيْسى وإنه      لَوَرْدُ لُبَيْناني وإنني لظامني  
يقول عندما اقترب من أحد المتنزهات التي كان يرتادها طلب من راحلته أن تبرك حتى يتذكر ماضيه مع نويرة.

وما رمزه لمعشوقته بهذه الأسماء إلا دليلاً على أن التصريح باسم النساء المعشوقات لم يكن ظاهرة منتشرة في شعر الغزل الأندلسي آنذاك. ويذهب الشاعر أبعد من الرمز فينطق اسمها بالإسبانية ويقلب الجيم خاء ويناديها يا خميلة كقوله:

[من الوافر]

(١) الذخيرة ف ١ م ٢، ص ٦٩٣، والمغرب ج ٢ ص ١٤٤.

(٢) الديوان، ص ١٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩١.

أتعلم أن لي نفساً عليّة      وأشواقاً مبرّحةً دخيلةً<sup>(١)</sup>  
وفي طيّ الخميّة ريم إنس      رمزتُ بها فليله الخميّة  
ومع كون معشوقته نصرانية جاء في شعره ذكر ما له علاقة بالجو المسيحي، التثليث،  
الإنجيل، عيسى المسيح القس، الصليبان، الكنائس، كقوله: [من السريع]  
قلبي فلي ذات الاثني عشر      رهيّن لوعات وروعات<sup>(٢)</sup>  
فإن بي للزوم روميّة      تكنسُ ما بين الكنيسات  
أهيم فيها والهوى ضلّة      بين صواميع وبيعات  
وفي ظباء البدو من يزدرى      بالظبيات الحضريات  
وقال أيضاً:  
حديثك ما أحلى فزيدي وحديثي      عن الرشأ الفرد الجمال المثلي<sup>(٣)</sup>  
ولا تسأمني ذكره فالذكر مؤنسي      وإن بعث الأشواق من كل مبعث  
ولا بدّ من قصّ على القس قصتي      عساه مُغيث المدنف المتغوث  
فلم يأتهم عيسى بدين قساوة      فيقسو على مضني ويلهو بمكرث  
وقلبي من حلّي التجلّد عاطل      هوى في غزال ذي نفاث مرغث  
سيصبح سري كالصباح مشهراً      ويمسي حديثي عرضة المتحدّث  
وقد دار أغلب غزله حول الحرمان والصد والمكابدة المستمرة، لأنه جرب في الحب وفي  
الواقع حباً صادقاً وحاداً، نتيجة ابتعاد نويّة عنه وما أحدثه ذلك وما خلفه فيه من شقاء وعذاب  
فهو لا يرتاح، ما دام حبل الوصل مقطوعاً، فرؤيته لها تُسرّي همومه وتطرد صبابته وتنعشه  
بالأمل، يقول:  
فهل تدريين ما تقضي      على عينيّ عيناك؟<sup>(٤)</sup>  
وما يذكّيه من نار      بقلبي نورك الذاكي؟  
حجبت سنّاك عن بصري      وفوق الشمس سيمّاك  
وفي الغصن الرطيب وفي الد      قفا المرتجّ عطفّاك  
نويّة إن قلّيت فإن      نبي أهواك أهواك  
وابن الحداد لم تخطئه أعين الرقباء والحساد التي كثيراً ما ذكرها في شعره كقوله:  
[من الوافر]

(١) الديوان، ص ٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٩/١٧٠.

(٤) الديوان، ص ٢٤١/٢٤٢.

رويدك أيها الدمع الهتون      فدون عيان من أهوى عيون<sup>(١)</sup>  
 يظن بظاهري حليم وفهم      ودخلت بباطني فيه جنون  
 إلى كم ذا أستر ما ألقى      وما أخفيه من شوقي بين  
 نويرة بي نويرة لا سواها      ولا شك فقد وضح اليقين  
 وكثيراً ما مزج غزله بالطبيعة الأندلسية فزادت شعره سحراً وجمالاً إذ كان مع نويرة  
 يتساقيان كؤوس الهوى في أحضانها.

ورغم ما لاقاه منها فإنه لا يستطيع التنصل عن حبها رغم الداء والأعداء يقول:  
 أهواهم وإن استمر قلاهم      ومن العجائب أن يُحبّ المبغض<sup>(٢)</sup>  
 تنهى النهى عنهم ويأمرنى الهوى      والنفس تعرض والمنى تتعرض

### أبو جعفر بن سعيد وحفصة

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، قيل أنه ليس هناك في أسرة بني سعيد أعلم منه في الشعر، وقد عشق حفصة شاعرة الأندلس، وكانا يتجاوبان تجارب الحمام. ولما حكم أبوه القلعة اتخذه وزيراً، فلم يقبل بذلك واستعفى أباه في قصيدة كتبها إليها، فلما قرأها ردّ عليه: (لا ينفع الله بما لا يكون مركباً في الطبع مائلة له النفس). ووقع على ظهر ورقته: (قد تركنا سراح أنسك، وألحقنا يومك بأمسك<sup>(٣)</sup>)، ولما ولي السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن غرناطة طلب كاتباً من أهلها، فوصف له فضل أبي جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره.

وحفصة بنت الحاج الركونية، أديبة شاعرة مشهورة بالجمال والحسب والمال، وقد قال عنها صاحب الإحاطة: (من أهل غرناطة فريدة الزمان في الحسن والظرف والأدب واللوزعية<sup>(٤)</sup>).

وحفصة هذه هي البائدة بالحب، وهي العاشقة والراغبة والمتلهفة، تتفن الإشارة والإغراء. وهذه طريقة متقدمة عند الأندلسيين وخاصة في عهد الموحدين، حيث نجد حفصة تطارد معشوقها وتغريه، وتدعوه لينهل من مورد نغرها، ويهنا في ظلال حبها، فتصف مفاتها بجراً، وتطرق باب معشوقها وتدعوه لزيارتها دون حرج؛ وهو المتيم بحبها، المعروف بلهوه ومرحه وأدبه.

ولا يقدم المؤرخون ترجمة وافية عن حفصة سوى ذكرهم أنها كانت تعيش في غرناطة، وكان أبوها غنياً من أعيان المدينة. وتكون قد ولدت قبل سنة ٥٣٠ هـ، في غرناطة التي كانت

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(٢) الديوان، ص ٢٣١.

(٣) الفتح ٤/ ص ١٦٩/ ١٨٠ - والمغرب ج ٢/ ١٣٨.

(٤) الإحاطة، ص ٤٩٩.

تحت حكم المرابطين، وقد عاصرت سقوط المرابطين وقيام دولة الموحدين في الأندلس وما صاحب ذلك من أحداث.

ولما بلغ عمرها العشرين سنة التقت بأبي جعفر بن سعيد، في مجتمع يجلس الشعراء ويضطرب لهم، وقد كان أديباً صاحب لهو وجاه. وكانت حفصة شاعرة عذبة وفتاة جريئة، شدت إليها انتباه الرجل فسعى الهوى بينهما، وعرضت عليه أن يزورها وإن لم يفعل ذهبت إليه قالت: [من الوافر]

أزورك أم تزور فإن قلبي فغري مـورد عذب زلال  
وقد أملت أن تظما وتضحى  
فعجل بالجواب فما جميل  
ونعرف من خلال أشعارها أنها باتت مع أبي جعفر في بستان بحور مؤمل على مقربة من غرناطة، وقد كتب إليها أبو جعفر يذكرها وينتظر ردّها ولكن حفصة لا تشاركه تفاؤله بالسعادة خشية المنغصين فتردّ على رسالته، فقال أبو جعفر:

رعى الله دهرأ لم يرخ بمدمّم  
وقد خفقت من نحو نجد أريجة  
وغرد قمريّ على الدوح وانثى  
يُرى الروض مسروراً بما قد بدّأ له  
وردّت عليه قائلة:

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا  
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا  
فلا تحسن الظن الذي أنت أهله  
فما خلّك هذا الأفق أبدى نجومه  
وتصف قبله رشتها من حبيبها:

ثنائي على تلك الثنايا لأنني  
وأنصفها لا أكذب الله إنني  
وتغار على حبيبها فتصف هذه الغيرة في أجمل ما يكون شعراً:

أقول على علم وأنطق عن خُبر<sup>(١)</sup>  
رشفْتُ بها ريقاً أرقّ من الخمر  
[من الوافر]

(١) نفع الطيب ١٧٨/٤.

(٢) نفع الطيب، ص ١٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٣.

أغار عليك من عيني رقيبى ومنك ومن زمانك والمكان<sup>(١)</sup>  
ولو أنسى خبأتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني  
ومهما تكن مشاعرها وعواطفها تجاه أبي جعفر فإنها قد اكتست حياتها طابعاً مأساوياً، فقد  
توزّع قلبها رجلان كلاهما هام بحبها، أحدهما شاعر - كما عرفناه - والثاني أمير صغير، وهو  
السيد أبو سعيد الذي أرسله أبوه الخليفة الموحدي أميراً على غرناطة. فطلب وزيراً من أهلها  
حتى يرضيهم فوق اختياره على أبي جعفر، فضاقت بالمنصب لملاحقة الأمير لحفصة، وهو لم  
يكن شاعراً قديراً يستطيع ملاطفتها، وقد عانت حفصة الكثير من ملاحقته لها، وهي تعرف حقه  
على أبي جعفر، وتعرف ما تنطوي عليه نفس أبي جعفر من احتقار لهذا الأمير، ففضلت الابتعاد  
عن عاشقها مدة شهرين، فاستبد به الشوق فكتب إليها دون أن يذكر اسمها، يترجأها أن تراسله  
في قصيدة نذكر منها قوله:

أنسوح وجداً وشوقاً إذ تستريح الحمامة<sup>(٢)</sup>  
صبت أطال هواء على الجيب غرامه  
وأجابته بقصيدة على نفس الوزن والقافية منها قولها:

لو كنت تعرف عذري كففت عذب الملامه<sup>(٣)</sup>  
وقد عاتبته ذات يوم لما علمت بعلاقته مع جارية سوداء فكتبت إليه تلوته:

[من مخلع البسيط]

عشقت سوداء مثل ليل بدائع الحمن قد ستر<sup>(٤)</sup>  
لا يظهر البشر في دجاها كلاً ولا يبصر الخفور  
بالله قل لي وأنت أدري بكل من هام في الصور  
من الذي هام في جنان لا نور فيه ولا زهور  
فرد عليها بأطرف اعتذار:

عدمتُ صبحي فأسود عشقي وانعكس الفكر والنظر  
إن لم تلخ يا نعيم رو حي فكيف لا تفسد الفكر  
ورغم هذا العتاب اللطيف، الذي لا يصدر عن حقد بل عن غيرة، ورغم ما يحمل من أمل  
فإن أبا جعفر قد أشهر سلاحه في وجه الأمير الذي نغص وشرد محبوه فكتب محقراً شأن الأمير  
قائلاً: (ما تحبين في هذا الأسود وأنا أقدر أن اشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه<sup>(٥)</sup>).

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٦.

(٢) النفع ١٧٣/٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٤) دراسات أندلسية للمكي، ص ٩٣.

(٥) نفع الطيب ج ٤، ص ١٨١.

ويبلغ قوله الأمير، فاستشعر النهاية ولاحقه الخوف، فقال: [من الكامل]  
 من يشتري مني الحياة وطيبها      ووزارتي وتأدبي وتهذيبي  
 وينتهز الأمير فرصة تمرد محمد بن مردنيش في شرق الأندلس، وانضمام أحد أفراد أسرة  
 بني سعيد إليه وهو عبد الرحمن بن عبد الملك فيلقي عليهم القبض جميعاً، ومن بينهم أبو  
 جعفر، ويقتل في سنة ٥٥٩هـ، وحزنت حفصة عليه ولبست السواد ورثته في أبيات قائلة:

[من الخفيف]

هددونني من أجل لبس الحداد      لحبيب لي أردوه بالحداد<sup>(١)</sup>  
 رحم الله من يجود بدمع      أو بنوح على قتيل الأعادي  
 وسقته بمثل جود يديه      حيث أضحي من البلاد الغوادي  
 هذه بعض قصة أبي جعفر مع حفصة ومع الأمير أبي سعيد، وهي مبثوثة في الإحاطة وفي  
 النفع والمغرب وغيره، ودراستها جديرة بأن تنافس قصة ولادة وابن زيدون، وتقرن بها في  
 المواقف وصدق الحب، فحفصة لم تجن على صاحبها مثلما فعلت ولادة التي دفعت به إلى  
 السجن، وفتحت قلبها لعاشق جديد هو ابن عبدوس. أضف إلى ذلك أن الحب بين أبي جعفر  
 وحفصة كان متبادلاً، لم تغيره عواصف التفرقة ولا تصرفات الأعداء، بينما يبدو حب ابن زيدون  
 من جانب واحد، كان يبحث عن الذرائع والحجج لحبه، بينما ولادة المستهلكة لا تبالي به وقد  
 غمرتها السعادة في متنها. أما حب ابن الحداد لنورية، فإنه لم يش جماعه كونها مسيحية،  
 وراح يرعى ودها بخياله وينعش آماله بطيفها، وكثيراً ما لاحقها في كل مكان حتى في الكنائس،  
 وهو في ذلك يعرب عن عواطفه ومشاعره.

فهذه بعض قصص الشعراء الغزليين في الأندلس في فترات مختلفة، تدل على وجود مادة  
 عالية في مستواها الفني، لا تقل إجادة عن بعض النماذج المشرقية، فهي جديرة بأن يلم بها  
 الدارسون والباحثون.

### المصادر والمراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، ج ٢.
- الأدب الأندلسي، دار العلم، ط ٢، ١٩٨٢، مصطفى الشكعة.
- البيئة وأثرها في الشعر الأندلسي، القاهرة ١٩٧٨، سعد إسماعيل شليبي.
- الحب في الأندلس، ط ١، ١٩٨٥، جودت مدلج.
- دراسات أندلسية، ط ٣، ١٩٨٧، الطاهر المكي.
- دراسات في الأدب الأندلسي، ط ١٩٧٨، إحسان عباس.
- ديوان ابن الحداد، ط ١٩٩٠، تحقيق يوسف علي طويل.
- ديوان ابن زيدون، ١٩٨٢، تحقيق أكرم البساني.
- الذخيرة لابن بسام، ج ١، م ١.
- عصر الدولة والإمارات في الأندلس، ط ١٩٨٩، شوقي ضيف.
- مجلة الكتاب المغربية، ١٩٧٥.
- نفح الطيب للمفري، تحقيق إحسان عباس.